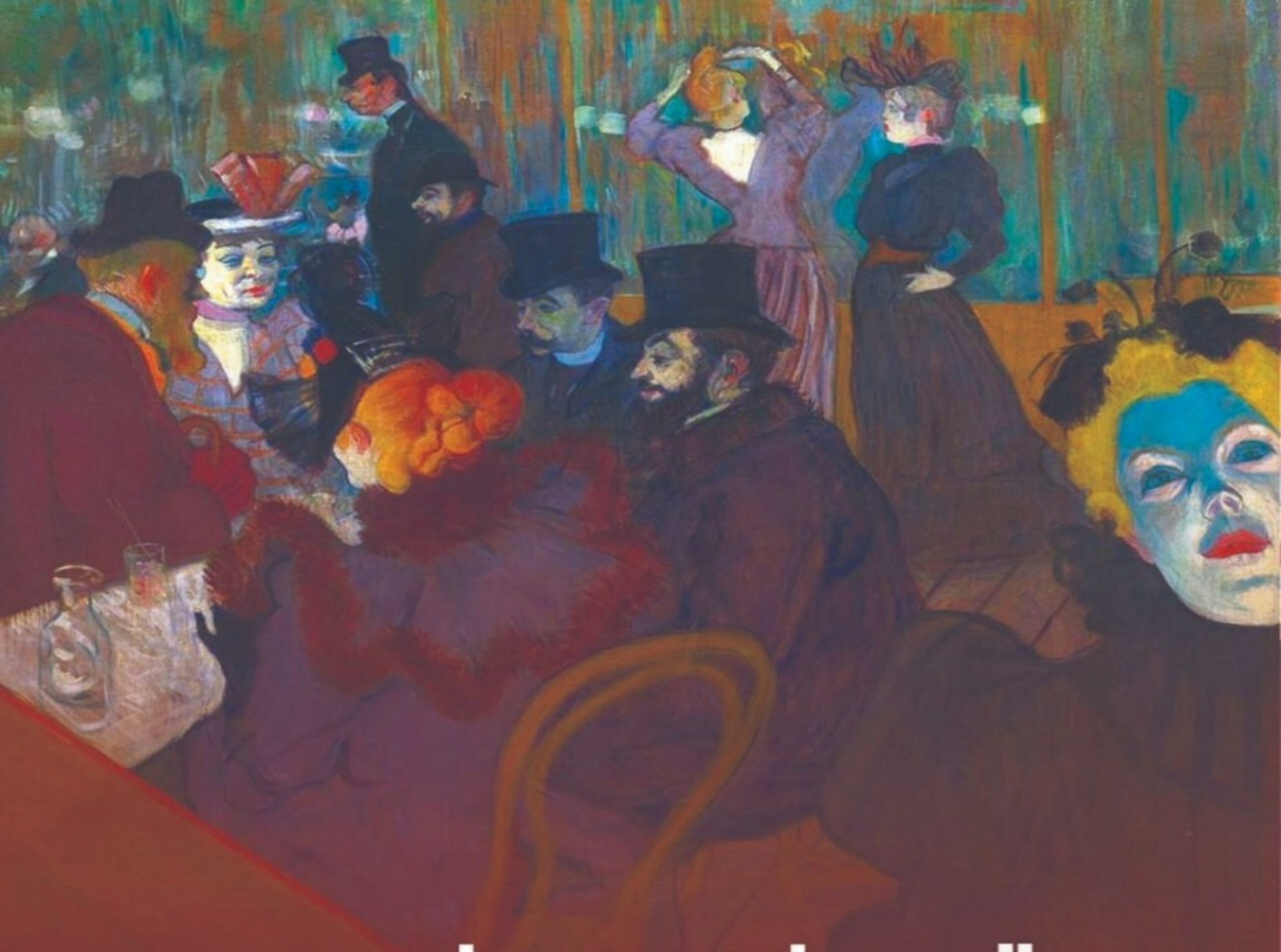

توماس هاردي

# مفارقات الحياة

رواية

مكتبة
Telegram
Network
2020

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

ترجمة : عثمان نويه

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

# (مفارقات الحياة)

## ل «Thomas Hardy»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق

مروة جمال - مصر

# مفارقات الحياة

## توماس هاردي

## رواية

## ترجمة عثمان نويه

## مراجعة أحمد حلمي علي

آفاق للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 20582 / 2018 الترقيم الدولي: 9 - 192 - 765-977 - ISBN 978

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any .means without prior permission in writing from the publisher

Afaq Bookshop & Publishing House 1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787 E-mail:afaqbooks@yahoo.com – http://www.afaqbooks.com1

شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية ت: 25778743 00202 - 25779803 00202 - موبايل: 01111602787

بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية هاردي، توماس.

توماس هاردي: مفارقات الحياة - ترجمة: عثمان نويه ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019 208 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20582 / 2018 الترقيم الدولي 9 - 192 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات) 2 - هاردي، توماس

## مقدمة

وُلد توماس هاردي في بوكهاميتون على مسافة ميلين من (دوشستر) في يونية عام 1840، وتعلم في هذه المدينة الأخيرة، ولكنه لم يذهب بعيدًا في مراحل التعليم؛ نظرًا لضعف بنيته، فوجه همَّه إلى دراسة هندسة البناء على يد أحد كبار المهندسين، ونبغ فيها، ونال جائزة معهد المهندسين البريطاني برسالة كتبها عن الآجر الملون والخزف.

ولكن ذوقه كان جانحًا إلى الأدب، فنظم الشِّعر، وعمد إلى كتابة القصة، وأدى به نجاح قصتيه الأوليين (تحت شجرة جرينود) و(عينان زرقاوان) إلى هجر هندسة البناء نهائيًّا، والاتجاه بكليته للأدب، قصةً وشِعرًا.

وقد نشر معظم قصصه منجَّمةً في المجلات. ومن هذه القصص «بعيدًا عن الجمهور الصاخب» و«عودة المواطن» و«نافخ البوق» و«عمدة كاستبردج». ومن أواخر القصص التي كتبها «تس سليلة دبرفيل» و«المحبوب» و«يهوذا المغمور».

وكتب أيضًا أقاصيص منها: «أقاصيص وسكس»، و«مجموعة من السيدات الفضليات»، و«مفارقات الحياة الصغيرة» وهي المجموعة التي بين يدي القارئ، وإن كنا آثرنا حذف لفظة «الصغيرة» من عنوان الكتاب، واكتفينا بستٍّ من هذه الأقاصيص؛ لأن السابعة لا تسمو إلى مستوى هذه الأقاصيص الست.

وقَرَضَ الشِّعرَ قبل أن يكتب القصة، وعاد إلى الشِّعر في أواخر حياته مؤثرًا إياه على القصة، ومن جيد ما كتب في الشِّعر (قصائد وسكس)، و(قصائد الماضي والحاضر). على أن أروع آثاره الشِّعرية ملحمة (العواهل) التي أدارها على نابليون وحروبه.

وقد عمَّر طويلًا رغم ضعف بنيته، وعاش معيشة هادئة في الريف، في تلك المنطقة التي أحبها، وجعلها مسرح قصصه جميعًا. وهي منطقة (دوشستر) التي خلدها باسم (وسكس)، وهي مملكة قديمة كانت في جنوب إنجلترا الغربي.

ومن آثاره الخالدة في أواخر أيام حياته (المأساة الشهيرة لملكة كورنول). وقد مُنح جائزة الجدارة تكريمًا له على حسن بلائه في الأدب، وزاره ولي العهد ليحييه نيابة عن أبيه، واحتفل به عالم الأدب والفكر. ولكنه كان في هدوئه وعزوفه زاهدًا في المجد، زاهدًا في الشهرة، زاهدًا في الملق والزلفى، لا عن كراهة للناس أو حقد عليهم، بل عن هدوء في الطبع ودعة في النفس ورهف في الحس، وظل في منطقته الريفية الحبيبة التي اختصها بقصصه جميعًا، إلى أن وافاه الأجل في يناير عام 1928. وقد كرم بدفن رماد جثته في وستمنستر. ولكن قلبه لا يزال مدفونًا في إحدى كنائس وسكس.

## منزلته الأدبية:

تسنم هاردي ذروة الأدب الإنجليزي في الثلاثين عامًا الأخيرة من حياته، فكان لا ينازعه منازع في زعامة الشِّعر أو زعامة القصة، وقد اختلف الباحثون في أمر شِعره وقصصه، فمنهم مَن يرى ناحية الشِّعر أقوى فيه من ناحية القصة، وكان هاردي نفسه يرى هذا الرأي في أواخر أيام حياته. ومنهم مَن يرى أن قصصه أسمى من شِعره، فبينما هو يعد من أكبر القصاصين في العالم في جميع العصور، إذا به لا يحظى بمثل هذه المنزلة بين شعراء العالم، وإن كان من شعراء الصف الأول في عصره.

ويميل معظم النقاد إلى الأخذ بالرأي الثاني، ويرون أن شهادة هاردي نفسه لا يعول عليها كثيرًا؛ لأن المرء قد ينخدع عما في نفسه من نواحي القوة والضعف. وقد لا يحفل بموهبة تهيأت له أو كفاءة توافرت فيه، بينما يحفل بموهبة أو كفاءة يتخيل وجودها في نفسه، أو يود لو توافرت فيه. وقد يؤدي الشعور بالنقص إلى استشعار الكمال.

وهذا الخلاف بين النقاد على شِعره وقصصه والموازنة بينهما أمر يفقد كثيرًا من أهميته إذا ذكرنا أن قصص هاردي وأقاصيصه هي من جيد الشِّعر، إذا جاز للشِّعر أن يتحرر من قوالبه التقليدية، ففيها نفحة شِعرية تهفو على الروح وتنسم على القلب، كما أن في شِعره روعة القصص ورواءَهُ. وهذا يتبين جليًّا في ملحمة (العواهل) التي ألمعنا إليها، والتي يعدها النقاد في صف المهزلة الإلهية لدانتي والفردوس المفقود لملتون.

وقد حرص هاردي على أن تكون قصصه صورة للحياة في منطقة وسكس، وأن تعالج مشكلات خالدة، تعالج الطبيعة الإنسانية وعلاقتها بالتقاليد الاجتماعية وظروف الحياة. وإذا كان الإنسان هو الإنسان، والطبيعة البشرية لا تتغير.. كان في قراءة هاردي لذة روحية يستشعرها القارئ في كل زمان ومكان.

وتتسم قصصه بطابع الصدق. ولا نعني بذلك أن حوادثها وقعت فعلًا، وإنما نعني أنها ممكنة الحدوث، متسقة مع الحياة الواقعية والطبيعة البشرية.

وثمة ميزة أخرى لقصص هاردي. ذلك أن علماء الأدب والنقد يقسمون القصص إلى نوعين: قصص محكم الخطة، وقصص مفكك الخطة. ويعنون بالأول ذلك القصص الذي تعد حوادثه، وتنسق خطته بتدبير وأحكام يؤديان إلى نتيجة رسمها الكاتب لقصته. ويعنون بالقصص المفكك ما لا يرسم له تصميم ما، بل يترك أشخاصه وحوادثه تنساب انسيابًا طبيعيًّا لتصل إلى النتيجة التي تتسق مع طبيعة الأشخاص والحوادث، دون اكتراث كبير لخطة أو أحكام أو نهاية مرسومة. بل ربما خلا ذهن كاتبه وهو يشرع في كتابته من فكرة واضحة عما يكون سير القصة ونهايتها، ولكلٍّ من المذهبين أنصاره وخصومه. ولا يعنينا الخوض في هذا البحث، وإنما يعنينا أن نشير إليه لنلقي ضوءًا على ناحية من نواحي عبقرية هاردي. فأعداء القصة المحكمة يأخذون عليها عدم استقامة

الشخصيات؛ لأن الكاتب كثيرًا ما يُضحِّي بها في سبيل أحكام خطته والوصول إلى نهايته المرسومة. وبذا تعجز القصة المحكمة عن أن تخلق شخصيات خالدة، تظل حية في خاطر الإنسان على مدى الزمان. ولكن هاردي -وهو من كتاب الخطة المحكمة كأثر لاشتغاله بهندسة العمارة- يشذُّ على هذه القاعدة، فيخلق لنا شخصيات متسقة خالدة لا تنسى. وآية ذلك تلك الأقاصيص التي بين يديك؛ فستقرأ فيها عن «ألا» و«سوفي» و«جوانا» و«مسز هارنهام» و«آنا»، وأغلب الظن أنك لن تنسى هذه الشخصيات، وأنها ستبقى حية في خاطرك، حبيبة إلى نفسك. وهكذا يجمع هاردي بين مزايا القصص المحكم والقصص المفكك.

وهناك ناحية أخرى جديرة بالملاحظة في قصص هاردي وأقاصيصه، هي معيشة أشخاصه منعزلين في الريف، ولعل هذا راجع إلى إيثاره حياة العزلة وعزوفه شخصيًّا عن المجتمعات وضوضائها. وفي هذا الريف المنعزل، الذي جعله مسرح قصصه وأقاصيصه، كان أهم شخص هو مالك الأرض وأسقف الأبرشية. فلا عجب إذا رأينا أمل كثير من الناس أن يكونوا، أو يكون أبناؤهم، أساقفة في الكنيسة، ينعمون بهذا المركز الاجتماعي الجليل.

وقصص هاردي تكاد تخلو من شخص شرير. وإذا لزم أن يكون بعض أشخاصه على جانب من الشر، حرص على أن يبرر خطأهم أو ضلالهم، أو يعتذر عنهم في ثنايا القصة، كما تستبين ذلك واضحًا في «مأساة أملين» التي تضمها هذه المجموعة، والتي تعد بحق أروع مأساة كتبها توماس هاردي، أما مسؤولية ما يصيبه أشخاصه من سوء -وهي التي يلقيها القصاصون على وغد القصة عادةً- فإنه يلقيها على الصدفة السيئة، أو على حقيقة غامضة في الطبيعة البشرية، أو ما إلى ذلك، ويأبي أن يحملها إنسانًا شريرًا بالمعنى الدقيق. وما نحسب إلا أنه تكلف جهدًا كبيرًا كي لا يصور أحد بني الإنسان وغدًا. ولا نرى مبررًا لهذا الجهد الذي بذل، وإن كنا لا نتمالك أن نحيي فيه حدبه على بني جنسه، وحبه إياهم، وتقديره لظروفهم.

ونحن إذا قرأنا قصصه أو أقاصيصه، أحببنا أشخاصه لما نلمس في قلوبهم من عطف وحب وشاعرية، لا لما توافر للنساء منهم من جمال، ولا لما تهيأ للرجال من عبقرية ونبوغ. فمعظم نسائه لسن على نصيب كبير من الجمال، ومعظم رجاله ليسوا نابهين ولا نابغين... بل كل هؤلاء وأولئك ناس عاديون، يقربهم من نفوسنا ما نلمس في نفوسهم من حب وعطف وحساسية.

أما أسلوبه فليس مبتكرًا، حتى إن بعض النقاد لا يرونه من أصحاب الأساليب. ويبدو أنه كان يؤثر مادة القصة وحبكتها على كيفية الأداء. وقد تسربت إلى قصصه بعض ألفاظ هندسية من أثر مهنته الأصلية، كما تسربت إليها بعض ألفاظ الفلسفة والعلوم التي انتشرت وتقدمت على عهده. ومع ذلك فهو من أبرع الكتاب في الوصف والتصوير، يستعين على ذلك بالتفصيل الجميل، الذي يكمل جوانب الصورة، ويبعث فيها الحياة. وإن كثيرًا من هذه الصور لتستحق معاودة القراءة مرات لقيمتها الذاتية، فضلًا عن أهميتها في سير القصة.

وهاردي بعد هذا -بل قبل هذا- صاحب فلسفة عن الحياة، وفهم خاص لبني الإنسان. وتستبين هذه الفلسفة وذلك الفهم من التيارات المتعارضة، والأغراض المتقلبة، والحوادث الخارجية الكابحة الغلابة التي تتذبذب بينها أفكار أشخاصه وأقوالهم وأعمالهم. وخير ما يقال في هذه الموهبة ما قاله سير والتر رالي في تعليقه على رواية (دون كيشوت) للكاتب الأسباني العالمي سيرفانتس:

«إن وظيفة التهكم والسخرية هي نقد الآراء والنظريات الخاطئة التي يعتنقها بنو الإنسان، نقدًا لا يتجه إلى إحلال آراء أو نظريات أخرى محلها، وإنما يهدف إلى عرض حقائق الحياة بحيث تعلق في صمت على آراء الإنسان ونظرياته. وحاكم هذا العالم هو الأستاذ الأول في التهكم والسخرية. وقد أتاح لبعض ذوي المواهب أن يكون لهم نصيب في هذا الفضل. أما ضعاف الأحلام من بني الإنسان فيحاولون عادة أن يحشدوا الحقائق لخدمة النظريات المدللة المكرمة، في حين أن روح الكاتب الجاد العميق تدرك أن الحقائق لا تحتمل هذه العبودية، ولا تقنع بأن تكف عن الكلام حتى يؤذن لها به. بل هي تقتحم طريقها فجأة، على نحو بعيد عن التناسق مثير الدهشة، إلى خطط الإنسان التي نسقها بتدبير وإحكام... فكم من امرئٍ حسب نفسه بمنجاة من المفاجآت، قد دهمه الحب، أو قصمه الموت».

ولقد كان هاردي من أساطين هذه السخرية العميقة! وقراءة كتبه تحث الخطى بذهن كل قارئ مرهف إلى فهم سخرية الحياة. ومعنى هذا -في رأي فولر- أن هاردي ينتمي إلى فئة كبار المتأملين ومفسري الحياة، وأنه لا يقل شأنًا عن سيرفانتس وشكسبير.

عثمان نويه.

## امرأة حالمة

لما فرغ وليم مارشمل من بحثه عن مسكن في سولنتزيا، ذلك المصيف المعروف في وسكس العليا، عاد أدراجه إلى الفندق يبحث عن زوجته. وكانت تسير مع أطفالها على الشاطئ. فأخبره الحمال ذو السمت العسكري بذلك، وأشار إلى الناحية التي ينبغي أن يذهب إليها.

«يا عجبًا! كيف سرت هذه المسافة الطويلة؟ كادت أنفاسي تتقطع من التعب». كان هذا ما ابتدر به مارشمل زوجته في شيء من الضجر عندما لقيها. وكانت تقرأ كتابًا في أثناء السير.. بينما أطفالها الثلاثة ومربيتهم قد سبقوها بمسافة بعيدة.

فأفاقت مسز مارشمل من الحلم الذي ألقى بها الكتاب في أحضانه، وقالت تجيب زوجها: «نعم! ولكنك غبت طويلًا، فضجرت من البقاء في هذا المنزل الموحش.

وأنا آسفة إذا كنت قد احتجت إليَّ يا ول».

«لقد شق عليَّ أن أجد مسكنًا يرضيني. وأنتِ حينما ترين الحجرات التي سمعت بجمال هوائها وتوفر أسباب الراحة فيها تجدينها مكتظة غير مريحة. فهلا أتيتِ ورأيتِ إن كان المسكن الذي اخترته يصلح أو لا يصلح؟ إنه ضيق وهذا ما أخشاه. بيد أني لا أستطيع العثور على خير منه، فالمدينة شديدة الزحام».

وترك الزوجان أطفالهما والمربية في نزهتهم وسارا معًا.

كانا متناسبين سنًّا، متكافئين مظهرًا، متوافقين في شؤون الحياة المنزلية، ولكن مختلفين مزاجًا... وإن لم يؤدِّ هذا الاختلاف إلى تصادم كثير. فقد كان الزوج سهلًا سمحًا، والزوجة عصبية حادة الطبع. وكان التباين بينهما شديدًا في الذوق والتخيل، ذينك الأمرين الضئيلين الجليلين. فكان مارشمل يرى في ميول زوجته واتجاهاتها شيئًا من الحماقة. وكانت ترى في ميوله واتجاهاته ضعة ومادية.

كان الزوج يحترف صناعة البنادق في مدينة نافقة تجاه الشمال، وكان قلبه لا يريم عن مهنته. أما السيدة؛ فخير ما يصورها تلك العبارة العتيقة اللبقة «راهبة الشِّعر» فقد كانت (إلا) سريعة التأثر حساسة، تجفل في اشمئزاز وإشفاق من حرفة زوجها، كلما فكرت في أن كل ما يصنعه إنما يهدف إلى دمار الأحياء. وكان سبيلها الوحيد لتهدئة هذا الخاطر أن تقنع نفسها بأن بعض هذه الأسلحة، على الأقل، سيستخدم عاجلًا أو آجلًا لاستئصال الهوام المؤذية، والحيوانات الضارية، التي تكاد تبلغ شأن الإنسان في بطشه بمَن هم أدنى منه مرتبة.

ولم تكن (إلا) فيما مضى قد رأت في صناعة زوجها ما يدعو إلى الإعراض عن الزواج منه. فقد حالت بينها وبين ذلك فكرة التزوج بأي ثمن، تلك الفضيلة الهامة التي تلقنها كل الأمهات الطيبات لبناتهن، إلى أن أُخلي بينها وبين وليم، ومضى شهر العسل، ووصلت إلى مرحلة التفكير والتأمل. فكانت أشبه بشخص عثر في الظلام على شيء لا يدري كنهه، فجعلت أفكارها تحوم حوله، وتحاول أن تعرف قدره: ترى أهو شيء نادر أم عادي؟ أيحوي ذهبًا أم فضة أم رصاصًا؟ أجذع شجرة هو أم قاعدة تمثال؟ أهو كل شيء أم هو لا شيء؟

ولم تصل في ذلك إلى رأي محدد. غير أنها منذ ذلك الحين استبقت حيوية عاطفتها بالرثاء لرفيقها، في خموله وقلة دماثته.. وكانت ترثي لنفسها أيضًا، مطلقة عنان عواطفها الأثيرية الرقيقة للخيال، وأحلام اليقظة، وحسرات الليل... وما كان هذا ليزعج زوجها لو علم به.

كانت صغيرة الحجم، متناسقة الجسم، دقيقة البناء، تمشي في خفة، وتكاد تثب في مشيتها، وكانت عيناها سوداوين، يتلألأ في إنسانيها ذلك السائل البراق الذي يميز هذا الطراز من الناس ذوي الروح الشبيهة بروح (إلا)... تلك الروح التي طالما صدعت قلوب الأصدقاء من الرجال، وربما صدعت قلب المرأة نفسها آخر الأمر.

وكان زوجها مديد القامة، طويل الملامح، ذا لحية سمراء، ونظرة متأملة... يعطف عليها ويتسامح معها، وكان يتكلم في عبارة مقتضبة، راضيًا كل الرضى عن أحوال العالم. التي جعلت صنع السلاح ضروريًّا.

سار الزوجان حتى بلغا المنزل الذي يبحثان عنه. وهو يقع في شارع واسع، مواجهًا للبحر. وأمامه حديقة صغيرة من نبات دائم الخضرة، لا يتأثر بالرياح أو بالملح.

ويؤدي إلى المدخل درج صخري، وكان للمنزل رقم كسائر منازل الشارع. ولكن لكبره عن باقي المنازل، كانت صاحبته تصر على تسميته (كوبرج هوس)، وإن دعاه كل مَن عداها (نيو باراد رقم 13).

هذه البقعة تفيض الآن حياة وجمالًا. أما في الشتاء فينبغي دعم الأبواب بأكياس الرمل، وحشو ثقوب المفاتيح؛ اتقاء للرياح والأمطار التي أكلت طلاء المنزل، فبانت منه العظام.

قابلتهما صاحبة المنزل في المدخل، وكانت ترقب عودة الزوج، فأرتهما الحجرات، وأخبرتهما أنها أرملة، وأن زوجها كان صاحب مهنة محترمة، وقد تركها موته المفاجئ في حالة عوز، ودافعت في حماسة عن ملاءمة المنزل وصلاحيته.

وأجابت مسز مارشمل بأنها أحبت الموقع والمسكن. غير أنه لصغره لا يناسب أسرتها، إلا إذا استأجرت جميع الغرف. فسبحت صاحبة المنزل في بحر من الأفكار، وبدت عليها خيبة الأمل. فهي في حاجة قصوى لأن يستأجرا حجراتها، كما قالت في صراحة واضحة. ولكن حجرتين منها

يسكنهما شاب أعزب، لا يدفع أسعار الموسم حقيقة، ولكنه يشغل الحجرتين طوال العام. وهو لطيف جدًّا، شائق جدًّا، لا يتعبها أبدًا. فلم تكن السيدة تريد أن تخرجه من أجل إيجار شهر مهما يكن عاليًا. قالت: «ومع ذلك فربما عرض هو أن يخلي حجرتيه بعض الوقت». لم يقبلا ذلك، وعادا إلى الفندق وفي نيتهما أن يطلبا إلى الوسيط أن يبحث لهما عن مسكن آخر. ولا يكادان يجلسان ويتهيئان لتناول الشاي، حتى تأتي صاحبة المنزل وتقول إن الشاب الرحيم قد عرض التنازل عن حجرتيه ثلاثة أسابيع أو أربعة، كي لا يحول بين السيدة ونزلائها الجدد.

فأجاب مارشمل: «هذا كرم منه لا شك، بيد أننا لا نريد أن نضايقه إلى هذا الحد». فقالت في استرسال: «كلا. أؤكد لك أن هذا لا يضايقه في شيء فهو يختلف عن معظم الشبان.. هو شاب حالم متوحد حزين شيئًا ما. وهو يؤثر الإقامة هنا حين تصارع الباب عواصف الجنوب الغربي، وحين يطغى البحر على الشارع ويقفز المكان من الناس، يؤثرها على الإقامة في الموسم.. فهو في الموسم يفزع إلى حيث أزمع مؤقتًا على سبيل التغيير... يفزع إلى عشة صغيرة في الجزيرة المقابلة». وكانت صاحبة المنزل ترجو بذلك أن ينزلا بدارها.

وعلى ذلك انتقلت أسرة مارشمل إلى منزلها في اليوم التالي، وبدا المنزل مناسبًا أتم المناسبة. وبعد تناول الغداء، سار مستر مارشمل في اتجاه رصيف الميناء، وتركت مسز مارشمل أبناءها يلهون على الرمال.

ولبثت هي تنظم أسباب الإقامة. وتختبر هذا الشيء أو ذاك. وتمتحن القوة العاكسة للمرآة في صدر الصوان.

وفي حجرة الجلوس الخفية، التي كان يقطنها الشاب الأعزب، وجدت أثاثًا له طابع يميز الحجرة من سائر الحجرات؛ فهذه كتب رثة، من طبعات عادية غير فاخرة قد كدست، متحفظة متحرجة في أركان الحجرة كأن صاحبها لا يتوقع أن يخلفه من رواد الموسم من يحفل بالنظر فيها. ووقفت صاحبة المنزل تحوم عند باب الغرفة لتصلح ما عسى ألا يروق مسز مارشمل.

- «سأجعل هذه حجرتي الخاصة؛ لأن الكتب فيها. على فكرة يبدو أن الشخص الذي ترك لنا هذه الحجرة يقتني كثيرًا من الكتب. وأرجو ألا يكون اطلاعي عليها مما يضايقه».

- «كلا يا سيدتي لن يضايقه مطلقًا. نعم، لقد جمع كتبًا كثيرة، ترين منها أنه أديب إلى حد ما. وهو شاعر، أجل شاعر. وله دخل مالي صغير يكفل له أن يقرض الشِّعر، ولكن لا يكفل له شق طريق إلى المجد والشهرة، لو كان ممن يحفلون بذلك».

- «شاعر!! ما كنت أعلم ذلك».

وفتحت مسز مارشمل أحد الكتب ورأت اسم صاحبه في صفحة العنوان.

- «يا عجبا! إني أعرف اسمه جيدًا.. روبرت ترو.. لا شك أني أعرفه وأعرف مؤلفاته. فهل هاتان الحجرتان اللتان أخذناهما إذَنْ حجرتاه؟ وهل هو إذَنْ الشخص الذي أخرجناه من منزله؟».

وبعد بضع دقائق كانت (إلا مارشمل) جالسة وحدها تفكر في دهشة وشغف في روبرت ترو. والشطر الأخير من حياتها يفسر هذا الشغف خير تفسير. فقد كانت (إلا) الابنة الوحيدة لأديب مجاهد. وبدأت هي منذ سنة أو سنتين تنظم الشِّعر، تحاول أن تجد فيه متنفسًا ملائمًا لعواطفها وما تنطوي عليه من ألم مكبوت. فقد غاض صفاؤها ومرحها من أثر الركود الناشئ عن تشابه الحياة المنزلية، ومن الكآبة التي جلبها إنجاب أطفال من أب غير نجيب. وكانت تذيل قصائدها بتوقيع مستعار يحمل اسم رجل، وتنشرها في مجلات مختلفة غير ذائعة. وقد أتيح لشعرها أن يظهر مرتين في مجلتين ذائعتين. وفي هاتين المرتين كانت الصفحة التي تحمل شِعرها مطبوعًا بالخط الدقيق، تحمل في صدرها أبياتًا بالخط الواضح في نفس الموضوع... لهذا الشاعر عينه، روبرت ترو. فقد تأثر كل من الشاعرين بمأساة روتها الصحف اليومية، فألهمتهما شِعرًا، وقد علق محرر المجلة على هذا التوافق قائلًا إن روعة القصيدتين قد حملته على نشرهما معًا.

وبعد ذلك صارت (إلا) أو (جون أيفي) ترقب في اهتمام وشغف كل ما ينشر من شِعر بتوقيع (روبرت ترو) الذي أبى عليه تشبثه برجولته أن يخطر بباله مرة أن يتنكر باسم امرأة. ولكنها وجدت مبررًا لمخالفة نهجه وتوقيعها باسم رجل. فمَن من الناس يؤمن بموهبتها إذا عرف أن ما يطالع من شعر عاطفي هو لزوجة صانع مكدود مغمور في زحمة الحياة... ولدت ثلاثة أطفال من أب واقعي عادي يصنع الأسلحة الصغيرة؟

كان شِعر ترو يخالف شِعر أوساط الشعراء المحدثين، كان يبدو فيه التأثر أكثر مما يبدو فيه الابتكار، ويتسم بالعاطفة المشبوبة أكثر مما يتسم بالنظم المحكم.

ليس شِعرًا رمزيًّا وليس نظمًا مسقًّا. وكان متشائمًا، إذا صح إطلاق هذه الصفة على مَن ينظر إلى أسوأ المصادفات في حياة الإنسان، كما ينظر إلى أحسنها سواء بسواء. وكان لا يستهويه رواء النظم والقافية كما يستهويه المعنى، فهو إذا قصرت سرعته الفنية عن مجاراة تدفق أحاسيسه، دس في قصائده مقطوعات مرسلة على طريقة الشعراء في عصر إليصابات.. وكان خيرًا له، في رأي كل ناقد منصف، أن يتجنب ذلك.

وفي غيرة حزينة يائسة كانت (إلا مارشمل) تبدأ وتعيد دراسة شِعر منافسها، الذي كان دائمًا على درجة من القوة لا يقاس إليها شِعرها الهزيل. وكان قصورها عن بلوغ شأوه كثيرًا ما يُلقي بها في نوبات شديدة من اليأس. وهكذا مرت أشهر حتى قرأت يومًا في قائمة الكتب الجديدة أن (ترو) قد جمع قصائده المتناثرة في ديوان، وما لبث الديوان أن صدر، ولقي من الثناء ما شاءت الظروف كثرة وقلة، ووفى ثمن ما بيع من نسخه بنفقات الطبع.

هذه الخطوة التي خطاها (ترو) أوحت إلى (جون أيفي) أن تجمع هي الأخرى مقطوعاتها -أو قل- أن تصدر ديوانًا يضم قصائد كثيرة مخطوطة إلى القليلة التي شهدت النور على صفحات المجلات. وكلفها الطبع نفقات باهظة... ولم يحس بظهور هذا الديوان الصغير المسكين إلا قليل من المجلات. ولم يعلق عليه أحد. ولم يشتره أحد.. فخر صريعًا في أسبوعين.. لو صح أنه شهد الحياة لحظة واحدة.

وكانت أفكار الشاعرة حينئذ متجهة إلى هوة أخرى.. فقد عرفت أنها ستلد طفلًا ثالثًا. ولعل مشاغلها المنزلية قد خففت من أثر شعورها بالفشل في مغامرتها الأدبية. ودفع زوجها في وقت واحد ما يستحقه الناشر وما يستحقه الطبيب. وانتهى كل شيء إلى حين. على أن (إلا) إذا كانت أقل شأنًا من شعراء عصرها فقد كانت أجل شأنًا من مجرد أداة لإكثار الجنس البشري؛ إذ عاودها أخيرًا إلهامها القديم، وها هي ذي تجد نفسها صدفة واتفاقًا في حجرات روبرت ترو.

ها هي ذي تنهض من مقعدها مفكرة، وتدرس المكان بروح زميل المهنة.. نعم ها هو ذا ديوانه بين الكتب الأخرى. ومع أنها تعرف كل ما فيه تمام المعرفة، فقد أعادت قراءته هنا، وأحست كأنما يحدثها في صوت مرتفع. ثم نادت مسز هوبر، صاحبة المنزل، متعللة بطلب تافه وجعلت تستفسر منها ثانية عن الشاعر الشاب.

- «أنا واثقة يا سيدتي أنك سوف تعجبين به إذا رأيته. غير أنه شديد الحياء، ولا أخالك سترينه».

وكانت (مسز هوبر) ترحب بالتحدث إلى صاحبتها بأخبار سلفها.

- «هل عاش هنا طويلًا؟».

- «نعم. حوالي سنتين. وهو يحتفظ بحجرتيه حتى إذا غادر المدينة؛ لأن هواء هذا المكان رخي يفيد صدره. ولذا يجب أن تظل هاتان الحجرتان له، يعود إليهما وقتما يشاء. وهو يقضي وقته دائمًا في الكتابة أو القراءة، ولا يختلط بكثير من الناس، مع أنه شاب طيب رقيق. ولو عرفه الناس لسروا بصحبته سرورًا لا يوصف... فما أندر ذوي النفوس الطيبة».

- «هو إذَنْ طيب القلب».

- «نعم. إنه لا يرد لي طلبًا، وأحيانًا أقول له: «مستر ترو، إنك حزين، فلم لا تتلمس الترويح عن نفسك بالتغيير؟»، فلا يمضي يوم أو يومان حتى يقول إنه أزمع الرحيل إلى باريس أو النرويج أو غيرهما. وأؤكد لك أنه يعود من الرحلة أطيب مما كان».

- «آه. إنه ذو مزاج حساس من غير شك».

- «نعم. ولكنه عجيب في بعض أطواره. انتهى مرة من نظم قصيدة في ساعة متأخرة من الليل، فجعل يذرع الحجرة ذهابًا وجيئة مترنمًا بقصيدته. ولما كان السقف رقيقًا والمنزل واهي البناء -وأنا أقول هذا دون حرج- فقد أرقني معه حتى تمنيت فراقه. على أننا نحيا مع ذلك في وئام تام».

وكانت هذه فاتحة أحاديث جرت مع الأيام عن الشاعر الناهض.

وحدث ذات مرة أن وجهت (مسز هوبر) نظر (إلا) إلى شيء لم تلحظه من قبل، إلى كتابة دقيقة سريعة بقلم الرصاص على ورق الحائط خلف الستائر عند رأس السرير.

- «أوه- دعيني أنظر» قالتها مسز مارشمل وقد عجزت عن إخفاء دفعة من الفضول الحنون، ومال وجهها الجميل على الحائط.

قالت (مسز هوبر) في لهجة المطلع على بواطن الأمور: «هذه المسودات الأولى لشِعره. وقد حاول أن يمحو معظمها، ولكنك تستطيعين قراءة بعضها. وأنا أعتقد أنه يصحو في الليل وبعض الشّعر في رأسه، فيسارع إلى إثباته هنا على الحائط. قبل أن يمحوه الصباح من ذهنه.

«وبعض هذه السطور التي ترينها هنا قرأتها في المجلات فيما بعد، وبعضها حديث عهد، حقًّا إني لم أقرأ هذه المقطوعة من قبل. إنها لا بد مكتوبة منذ أيام قليلة».

- «هذا صحيح».

واحمر وجه (إلا مارشمل) دون أن تعرف لهذا سببًا. وأحست فجأة برغبة في التخلص من رفيقتها بعد أن أدلت بما لديها. فإن شعورًا غامضًا بالميل الشخصي إلى الشاعر، أقوى من الميل إلى أدبه، قد زين لها أن تقرأ المخطوطات على انفراد. فانتظرت خروج صاحبتها، لتتهيأ لها هذه الفرصة، فتستمتع بذخيرة عاطفية ضخمة.

ولعل اصطخاب البحر حول الجزيرة هو السبب في أن زوج (إلا) لم يستصحبها في نزهته البحرية؛ لأنها ممن يتعرضون لمرض البحر. فذهب وحده -دون تورع- على متن أحد القوارب البخارية التي تقوم برحلات زهيدة الأجر، والتي يرقص الناس على ظهرها في ضوء القمر، ويرتمي كل راكب فجأة في أحضان رفيقه كلما مال القارب، ويختلط الحابل بالنابل -كما أخبرها في صراحة- فلا يليق به أن يصطحبها إلى مثل هذه المشاهد.

وهكذا نرى هذا الصانع الناجح يحظى بقسط كبير من التجديد والتنويع وهواء البحر في أثناء مقامه هنا. بينما حياة (إلا) -في الظاهر على الأقل- تسير على نمط واحد، يتلخص في قضاء بضع ساعات في الاستحمام كل يوم، والتنزه ذهابًا وإيابًا وجيئة على شريط من الشاطئ. ولكن لما كانت جذوة الشّعر قد اتقدت في قلبها من جديد، فقد استعر في حناياها لهيب لا يكاد يسمح لها برؤية ما حولها.

وجعلت تقرأ ديوان (ترو) الأخير حتى استظهرته، وتنفق الساعات الطويلة في محاكاة شِعره على غير طائل، حتى تتفجر دموعها من الفشل. وكان العامل الشخصي في جاذبية هذا الشاعر الذي أحاط بها من كل جانب، والذي لم تسمُ قط إلى سمائه، أقوى كثيرًا من العامل المعنوي أو الفكري. ولم تكن تفهم لهذا من علة. والواقع أنها كانت في النهار والليل محوطة بمحيطه المألوف الذي يهمس به في أذنها كل لحظة همسًا مسموعًا. غير أنه رجل لم تره بعد، ولم يخطر في بالها بطبيعة الحال أن كل ما يثيرها، إنما هو ميل إلى أن تخص أول رجل ملائم تأتي به الصدفة، بعاطفتها المشبوبة المتلهفة.

وكان من الطبيعي، في الظروف العملية القاسية التي ابتكرتها المدنية لنمائها وازدهارها، أن ينتهي حب زوجها إياها إلى لون من الصداقة، قد يساوي صداقتها له وقد لا يساويها.

ولما كانت (إلا) امرأة عاطفية، مرهفة الحس، متوقدة الشعور، تحتاج إلى غذاء يحفظ حيوية عواطفها وتوقدها، فقد وجدت في هذا الظرف العارض، غذاء أجود بكثير مما تقدمه الصدفة عادة.

وذات يوم كان الأطفال يلعبون (الاختفاء والتفتيش) في إحدى الغرف الصغيرة. وفي نشوة اللعب، جذبوا رداء قالت مسز هوبر إنه لمستر ترو، وأعادته إلى مكانه.

فاستحوذ عليها الخيال، ودفعها إلى انتهاز فرصة خلو هذا الجزء من المنزل بعد ظهر ذلك اليوم، فذهبت إلى هذه الغرفة الصغيرة وفتحتها، وانتزعت رداء...

معطفًا... وارتدته ثم لبست القبعة الخاصة به: «رداء إليجا!! وددت لو أنه ألهمني شِعرًا رائعًا كشِعره... ذلك العبقري الفذ!».

وكانت عيناها تدمعان كلما سبحت في مثل هذه الأفكار، فالتفتت إلى المرآة تتأمل نفسها فيها. لقد خفق قلبه في داخل هذا المعطف. وسما عقلها تحت هذه القبعة إلى آفاق من الفكر لا قبل لها به.

وأدى إحساسها بضعفها بالقياس إليه، إلى شعورها بالسقم والهم. وقبل أن تخلع ملابسه، فُتح باب الحجرة، وكان القادم زوجها.

- «ماذا تصنعين؟».

فاحمر وجهها خجلًا، وخلعت المعطف والقبعة، وهي تقول: «لقد وجدتهما هنا فبدا لي أن أعبث بهما وارتديهما... ماذا عساي أن أصنع غير ذلك وأنت دائمًا خارج المنزل؟» - «دائمًا خارج المنزل؟ هذا صحيح».

وفي هذا المساء دار حديث جديد بينها وبين صاحبة المنزل، ولعل هذه كانت تطوي في أعماقها شيئًا من الحنو على الشاعر. فكانت على الدوام متأهبة تمام الأهبة للتحدث عنه في حرارة

وحماسة. قالت:

- «أنا أعلم يا سيدتي أنكِ مهتمة بمستر ترو. وقد أرسل منذ مدة قصيرة، يقول إنه سيزورني غدًا بعد الظهر. ويرجو أن أكون بالمنزل، لأهيئ له الاطلاع على بعض كتب هو في حاجة إليها، وقد يختارها من حجرتك، فهل تسمحين؟».

- «بكل ارتياح».

- «إنك تستطيعين إذَنْ أن تقابلي مستر ترو إذا بدا لكِ أن تظلي في الحجرة».

فوعدت أن تفعل، وهي تستشعر سرورًا خفيًّا. وذهبت إلى مخدعها تسبح في أفكارها.

وفي الصباح التالي يقول لها زوجها: «لقد فكرت فيما قلته يا (إلا)، فأنا حقيقة أخرج كثيرًا وأترككِ وحدكِ لا يسليكِ شيء، لذا سآخذكِ اليوم والبحر هادئ إلى نزهة باليخت».

ولأول مرة في حياتها لم تطرب لمثل هذا العرض، وإن قبلته مؤقتًا. واقترب موعد النزهة وهمت تستعد لها. ولكنها وقفت تفكر، وسرعان ما تغلب شوقها إلى رؤية الشاعر الذي تحبه على كل اعتبار آخر. فقالت لنفسها: «أنا لا أريد أن أخرج.. أنا لا أحتمل مغادرة المنزل ولن أغادره».

وقالت لزوجها أنها عدلت عن فكرة النزهة. فلم يكترث، وانصرف لشأنه.

وفي الشطر الباقي من النهار، ساد البيت هدوء وسكون. فالأطفال بعيدون يلعبون على الرمال. والستائر تموج في ضوء الشمس، مجاوبة موجات البحر التي تخفق في رفق متصل فيما وراء الحائط. ومعظم النزلاء قد خفوا لاستماع (سيليزيا الخضراء) وهي فرقة موسيقية أجنبية مستأجرة مدة الموسم. فندر السكان والسابلة في جوار (كوبرج هوس).

وسُمع طرقٌ على الباب، ولكن لم تسمع (مسز مارشمل) أحد الخدم يجيب الطارق، فشعرت بالقلق وهي جالسة في حجرة الكتب. بيد أن أحدًا لم يقدم.

فضغطت على الزر الكهربي.

- «إن بالباب شخصًا ينتظر».

فقالت الخادم: «كلا يا سيدتي لقد أجبته وانصرف منذ زمن طويل. وأتت (مسز هوبر) وهي تقول: «شيء مؤلم.. مستر ترو لن يأتي بعد كل هذا».

- «ولكن يخيل إليَّ أني سمعته يطرق الباب».

- «لم يكن هو، وإنما كان شخصًا يبحث عن مسكن وأخطأ العنوان. لقد فاتني أن أخبرك أنه أرسل خطابًا قبل الغداء يقول فيه ألا داعي لإعداد الشاي له؛ لأنه في غير حاجة إلى الكتب، ولن يأتي لاختيار شيء منها».

فشعرت (إلا) بالتعاسة، وظلت وقتًا طويلًا لا تستطيع قراءة أغنيته الباكية عن (الأرواح الشريرة). وكم كان قلبها الصغير الحائر موجعًا محزونًا، وكم فاضت عيناها بالدموع. ولما عاد الأطفال بجواربهم المبتلة، وأسرعوا إليها يحدثونها بمغامراتهم، لم تشعر أنها تحفل بهم نصف ما كانت تحفل بهم عادة.

* * *

«مسز هوبر: ألديك صورة للشاب... الذي كان يسكن هنا؟»، فقد بدأت تشعر بخجل عجيب من ذكر اسمه.

- «عندي طبعًا. وهي يا سيدتي في إطار الزينة، فوق رف الموقد في حجرة نومكِ».

- «كلا. ليس في الإطار سوى صورة الدوق والدوقة».

- «نعم. ولكنه من خلفها. إن هذا الإطار يناسبه تمامًا، وقد اشتريته من أجله، غير أنه حينما همَّ بمبارحتنا قال لي (بالله ألا حجبت وجهي عن هؤلاء الغرباء النازلين عندكِ. فأنا لا أريدهم أن يحدقوا في وجهي، وأنا واثق أنهم أيضًا لا يريدونني أن أحدق في وجوههم)؛ لذا أسدلت على صورته مؤقتًا صورة الدوقين، ولم يكن لها عندي إطار. وصور الأمراء أليق بالحجرات المؤجرة من صور شاب عادي. فارفعي صورة الدوقين تجديه من ورائهما.. بالله يا سيدتي لو أنه قرأ المستقبل لما اشترط هذا الشرط... إنه لم يقدر أن تكون نزيلة حجرته من بعده سيدة شائقة إلى هذا الحد. ولو أنه علم، لما فكر في إخفاء نفسه».

فسألت (إلا) في توجس: «وهل هو وسيم؟».

- «أنا شخصيًّا أعده وسيمًا. وقد لا يعده غيري كذلك».

فسألت في تلهف: «وهل أنا ممن يعدونه وسيمًا؟».

- «أظن. وإن كان بعض الناس يقولون إن الجاذبية أظهر فيه من الوسامة. فهو شاب واسع العينين، دائم التفكير، تومض عيناه وميضًا كهربيًّا إذا ما تلفت حوله بسرعة.. هو ما تنتظرين من شاعر لا يتخذ شعره أداة للتكسب».

- «وما سنه؟».

- «أكبر منكِ بسنوات يا سيدتي. أظنها حوالي الواحدة والثلاثين، أو الثانية والثلاثين».

وكانت سن (إلا) في حقيقة الأمر تزيد بضعة أشهر على الثلاثين. ولكنها كانت تبدو أصغر بكثير. ومع أن طبيعتها لم تنضج بعد، فقد أشرفت على مرحلة من مراحل العمر، تتوجس فيها النساء العاطفيات من أن يكون الحب الأخير أقوى من الحب الأول. لقد أوشكت أن تنتقل -ويا للأسف- إلى دور أكثر كآبة وحزنًا، هو الدور الذي تجفل فيه السيدات -وخاصة المرهفات- من لقاء الزائرين من الرجال، ألا وظهورهن إلى الحائط وستائرهن مدلاة إلى منتصفها. فكرت فيما قالته مسز هوبر ولم تشر ثانية إلى السن.

وفي تلك الأثناء جاءتها برقية من زوجها تنبئ أنه أبحر في القنال حتى (بدموث) في يخت مع رفاقه، وأنه لن يستطيع العودة إلا في الغد.

وبعد أن تناولت (إلا) وجبة خفيفة جعلت تذرع الشاطئ مع بنيها حتى الغسق، مفكرة في صورة في حجرتها لم يمط عنها اللثام بعد، وهي تحس إحساسًا بينًا أن شيئًا مثيرًا سوف يقع. وبهذا الخيال المرهف الزاخر الذي تحذقه هذه السيدة، لم تصعد الدرج توًّا، وتفتح الإطار، بل آثرت -ما دام زوجها لا يحضر هذا المساء- أن تؤجل رفع الستار عن الصورة ريثما تنفرد في الحجرة.. ويضفي رواء على الموقف سكون الليل، وضوء الشموع، وهدوء البحر، وتلألؤ النجوم في السماء.. فهذا خير من عرضها للنور الفضَّاح ساعة الأصيل.

أوى الأطفال إلى فراشهم، وأوت (إلا) إلى مضجعها، وإن كانت الساعة لم تبلغ العاشرة. ولتشبع ميلها المستهام لرؤية الصورة، أخذت في الاستعداد، فخلعت ملابسها الزائدة عن الحاجة، وارتدت ثوبًا فضفاضًا، وأعدت مقعدًا أمام المنضدة. وجعلت تقرأ صفحات من أرق شِعره الغزلي، ثم أحضرت إطار الصورة وفتحته من الخلف، وأخذت صورة الشاعر ونصبتها أمامها.

كان وجه الشاعر ذا تأثير في الناظر إليه، وله شارب أسود غزير، ولحية صغيرة، وقبعة مسترخية الحواف، تلقي ظلًّا على جبهته، أما العينان السوداوان الواسعتان اللتان وصفتهما السيدة، كشفتا عن حالة من البؤس لا حد لها. فهما ترنوان من تحت حاجبيه منسقين كأنما تتأملان الكون في عالم صغير هو الوجه الذي تنظران، ولا يستخفهما الطرب لما تشهدان مهما كان.

فهمست (إلا) في أخفت أنغامها وأحلامها وأرقها: «أهو أنت القاسي الذي أخبى نوري كل هذه المرات؟». ولما أطالت النظر إلى الصورة غرقت في الخيال حتى اغرورقت عيناها بالدموع، ومست الصورة بشفتيها، ثم ضحكت في خفة عصبية وجففت عينيها.

وما لبثت أن رأت نفسها امرأة شريرة حقًّا.. لها زوج وثلاثة أطفال، ثم تدع عقلها ينحرف إلى رجل غريب بهذه الطريقة المزرية؟ كلا، ولكنه غير غريب. إنها تعرف عن أفكاره ومشاعره ما تعرف عن أفكارها ومشاعرها. فهو يوائمها تمام المواءمة. أما زوجها فخلو من هذه الأفكار

والمشاعر. وربما كان هذا من حسن حظ رجل يعول أسرة «إنه أقرب إلى ذات نفسي، وأوثق صلة بأعماق روحي من (ول) مع أني لم أره قط». ثم وضعت ديوانه وصورته على المنضدة المجاورة للمخدع.

واضطجعت على الوسادة وعادت إلى قراءة قصائده، التي تراها أعظم شِعره تأثيرًا وصدقًا. ثم نحَّت الديوان ووضعت صورة الشاعر رأسية على الوسادة. وجعلت تحدق فيها وهي مستلقية، ثم عادت تختبر في ضوء الشمعة الأشعار المكتوبة بقلم الرصاص على ورق الحائط بجانب رأسها. ها هي ذي ألفاظ.. وأبيات.. وأوائل سطور وأواسطها.. مسودات أفكار كقصاصات شلي.. أتفهها قوي، حلو، خفاق. وأحست كأنما أنفاسه الحارة المحبة تنسم على خديها من هذه الحوائط.. الحوائط التي طالما أحاطت برأسه كما تحيط الآن برأسها. لا بد أنه كان يرفع يده ممسكًا بالقلم. نعم. فالكتابة مائلة مما يدل على أنه حين كتبها كان يمد يده هكذا.

هذه الصورة المخطوطة لدنيا الشاعر (رسوم تفوق في حيويتها الإنسان لحي نفسه. رسوم أبدعتها يد الخلود) كانت لا ريب من وحي الأفكار والتسامي الروحي الذي يختلف عليه في سكون الليل. فيطلق نفسه على سجيتها غير مكترث بوخز النقاد. لا بد أنه كتب كثيرًا منها في سرعة على ضوء القمر، أو أشعة المصباح، أو نور السحر ذي اللون الأزرق الأغبش. أما في وهج النهار، فلا أخاله كتب شيئًا. والآن ها هو ذا شعرها يتدلى إلى حيث كانت ذراعه وهو يقيد شوارده. إنها تنام الآن على شفتي شاعر، غارقة في صميمه، موغلة في روحه كما توغل في الأثير.

وظلت تحلم على هذا النحو، والوقت يمضي، حتى سمعت وقع أقدام على الدرج، ثم ما لبثت أن سمعت وقع خطى زوجها الثقيلة خارج الحجرة مباشرة.

- «إلا. أين أنتِ؟».

فتملكها شعور لا تستطيع وصفه. غير أنها في اعتراض غريزي على أن يعرف زوجها ما هي بصدده، أخفت الصورة تحت الوسادة حين دفع الباب بطريقة تشعر أنه تناول عشاء لا بأس به.

- «أوه -أنا آسف. أتشعرين بصداع؟ أخشى أن أكون أزعجتكِ».

- «كلا ليس عندي صداع.. ولكن كيف استطعت أن تأتي؟».

- «وجدنا أخيرًا أننا نستطيع العودة في وقت ملائم. ولم أشأ أن أضيع هناك يومًا آخر؛ لأني سأذهب غدًا إلى مكان سواه».

- «هل يلزم أن أبارح فراشي مرة أخرى؟».

- «كلا - إني مكدود جدًّا. وقد أكلت جيدًا وسأنام مباشرة. وأريد أن أخرج غدًا في الساعة السادسة صباحًا إن استطعت، ولن أقلقكِ حين أستيقظ، فسأخرج قبل أن تستيقظي بوقت طويل».

وأوغل في داخل الحجرة، وبينما كانت عيناها تتبعان حركاته، دفعت بيدها الصورة في رفق، بعيدًا عن الأنظار.

- «طبعًا لست مريضة؟» سألها هذا السؤال وهو يميل عليها.

- «كلا. إني فقط متضايقة».

«دعيكِ من هذا»، ومال عليها وقبلها: «لقد أردت أن أقضي معكِ هذه الليلة».

وفي الصباح نودي على مارشمل في الساعة السادسة، وبينما هو يفتح عينيه ويتثاءب، سمعته يغمغم: «يا للشيطان. ماذا الذي كان يقعقع تحت رأسي؟».

وحسبها نائمة، فجعل يبحث حوله، ثم جذب شيئًا استطاعت بعينيها المفتوحتين قليلًا أن تتبين أنه صورة مستر ترو. وقال متعجبًا: «أي شيء هذا الذي أرى؟»، فتساءلت زوجته:

- «ماذا يا عزيزي؟».

- «أوه. أنتِ صاحية! هاها».

- «ماذا تعني؟».

- «صورة شاعر، صديق لصاحبة النزل على ما أظن، ترى ماذا أتى بها إلى هنا. ربما انتقلت من الرف عرضًا وهم يعدون الفراش.. جائز».

- «لقد كنت أتفرج عليها أمس، ولا بد أنها بقيت هنا منذ ذلك الوقت».

- «أوه. أهو صديقكِ؟ بارك الله في قلبه الشاعر».

وكان وفاء (إلا) للرجل الذي أعجبت به لا يسمح لها بأن تدعه هدفًا للسخرية. «إنه رجل كفء» كذلك قالت في صوت هادئ مرتعش.. رعشة شعرت هي نفسها ألا مبرر لها. «إنه شاعر ناهض. إنه الرجل الفاضل الذي كان يسكن هاتين الحجرتين قبلنا. وإن كنت لم أره قط».

- «وكيف تعرفين عنه شيئًا إذا كنت لم تريه قط؟».

- «حدثتني به مسز هوبر حين أرتني الصورة».

- «سأترك الفراش الآن وأمضي. ولن أتأخر في العودة. وأنا آسف إذ لا أستطيع أن أصطحبكِ اليوم يا عزيزتي. فراقبي الأطفال ولا تدعيهم يغرقون».

وفي هذا اليوم سألت مسز هوبر: «هل من المحتمل أن يأتي مستر ترو إلى المنزل في أي وقت آخر؟».

فأجابت مسز هوبر: «نعم سيأتي في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم، ليقيم مع أحد أصدقائه قريبًا من هنا حتى تسافروا. ومن المؤكد أنه سيزورنا».

وبكر مارشمل بالحضور، فأتى بعد الظهر بقليل، وبعد أن قرأ بعض خطابات وصلت في غيبته، أعلن فجأة أن عليهم جميعًا أن يسافروا قبل موعدهم بأسبوع، أي بعد ثلاثة أيام. فقالت في ضراعة: «مؤكد أننا نستطيع البقاء هنا أسبوعًا آخر. أنا أحب هذه البقعة».

- «وأنا لا أحبها.. لقد بدا شيء من الكآبة يغشاها».

- «إذَنْ سافر، واتركني أنا والأطفال».

- «ما أشد عنادكِ يا (إلا). ما الفائدة من ذلك؟ وهل آتي إلى هنا مرة ثانية لاستصحابكم في العودة؟ كلا. فلنعد معًا. وقد نذهب إلى ويلز الشمالية أو بريتون فيما بعد، لقضاء بعض الوقت.. ومع ذلك فلا يزال أمامك ثلاثة أيام هنا».

وكأنما حكمت عليها الأقدار بألا تلقي الرجل الذي أعجبت بنبوغه كل هذا الإعجاب، وأحبت شخصه أعمق الحب. فصممت على أن تقوم بمحاولة أخيرة لتلقاه.

فقد فهمت من صاحبة النزل أن ترو يعيش في بقعة منعزلة، قريبة من مدينة حديثة الطراز في الجزيرة المقابلة. فعبرت البحر إلى تلك الجزيرة، في قارب من المرسى المجاور، في عصر اليوم التالي.

وكم كانت رحلة مخيبة للآمال! كان لدى (إلا) فكرة غير واضحة عن موقع المنزل. وحينما خيل إليها أنها عثرت عليه، وجرؤت أن تسأل أحد السابلة: «هل مستر ترو يقيم هنا؟»، كان جوابه أنه لا يدري. وحتى إذا فرض أنه يقيم هناك، فكيف كانت تستطيع أن تزوره؟ ربما استطاعت ذلك بعض النسوة الجليدات.. ولكن أين هي من هؤلاء؟ إنه ليظنها مغرقة في البله والطيش لو فعلت ذلك. وربما كانت تستطيع أن تدعوه لزيارتها. ولكن ليس لديها من الشجاعة ما يمكنها من ذلك.

فجعلت تتجول في تمهل -وهي كئيبة محزونة- على الشاطئ المرتفع الرائع، حتى إذا آن أوان العودة إلى المدينة. ركبت القارب البخاري، ووصلت إلى منزلها وقت العشاء، دون أن يكون أحد قد أحس كثيرًا بغيابها.

وفي اللحظة الأخيرة قال زوجها على غير انتظار أن ليس لديه ثمة مانع من تركها مع الأطفال حتى نهاية الأسبوع، ما دامت تريد ذلك.. هذا إذا كانت تشعر باستطاعتها العودة من دونه. فأخفت سرورها بهذه المدة الإضافية. وفي الصباح سافر (مارشمل) وحده.

ولكن مضى الأسبوع دون أن يبدو أثر لترو.

وفي صباح السبت غادرت (إلا) وأطفالها ذلك المكان الذي أثار فيها حنينًا وحرارة بالغين. ها هو ذا القطار الكئيب، وها هي ذي الشمس تسطع في أشعة يشوبها الغبار على الوسائد الحرى. وها هو ذا الطريق الأغبر الذي لا ينتهي. وهذه أسلاك البرق الحقيرة.. ظلت هذه الأشياء تلازمها في الرحلة، بينما كانت تشهد من خلال النافذة صفحة الماء الأزرق العميق تتوارى، ومنزل شاعرها الرقيق يختفي. إنها مثقلة الفؤاد. لقد حاولت أن تقرأ، ولكنها بكت وطوت الكتاب.

وكان مستر مارشمل تاجرًا رائجًا يقطن مع أسرته في منزل جديد واسع، يقع في وسط أرض شاسعة تبعد بضعة أميال عن مدينة الوسط، مقر أعماله، وكانت (إلا) تحيا في عزلة، شأن سكان الضواحي في أغلب الأحوال، وخاصة في مواسم معينة. فكان وقتها يتسع لإشباع ميلها للأدب العاطفي وشِعر الرثاء. وما كادت تعود إلى منزلها، حتى وجدت قطعة لروبرت ترو في العدد الأخيرة من مجلتها المختارة، كتبها من غير شك قبيل زيارتها لسولنتزيا مباشرة، إذ كانت تحوي نفس الأبيات التي رأتها مكتوبة بقلم الرصاص على ورق الحائط المجاور للسرير، وقالت عنها مسز هوبر إنها إنتاج حديث.

لم تستطع وقتئذ أن تتمالك شعورها كما كانت تفعل، فأمسكت بقلم الرصاص في تأثر، وكتبت إليه باسم شاعر زميل (جون أيفي) مهنئة إياه بتوفيقه الفذ في اختيار الوزن والقافية، وتنسيق الأفكار التي تحرك وجدانه، وقارنت ذلك بمحاولاتها الفاشلة في نفس الصناعة العاطفية.

فجاء ردًّا بهذا الاسم بعد أيام قليلة، رغم أن (إلا) لم تك تجرؤ على الأمل في ذلك. وكان خطابه مؤدبًا موجزًا، ذكر فيه الشاعر الشاب أنه وإن كان لم يقرأ لجون أيفي شعرًا كثيرًا، فإنه يذكر أنه رأى توقيعه تحت قصائد تبشر بمستقبل زاهر في الشِّعر. وأنه سعيد إذ يتعرف على مستر أيفي بالمراسلة، وأنه سوف يتتبع إنتاجه في المستقبل.

فقالت لنفسها: لا بد أنه كان في خطابها الذي أمهرته باسم رجل شيء ينبئ عن صغر السن أو التهيب؛ لأن (ترو) استعمل في رده لهجة مَن هو أكبر سنًّا وأعلى منزله. ولكن ماذا يهم في هذا؟ لقد حظيت بجوابه، وكتب إليها بذات يده، من هذه الحجرة ذاتها التي تعرفها حق المعرفة؛ لأنه عاد إليها وقتئذ.

واستمرت المكاتبة التي بدأت على هذا النحو، شهرين أو يزيد. وكانت (إلا) ترسل إليه من وقت لآخر بعضًا من خير قصائدها، فكان يتقبلها في أدب جم، وإن كان لا يصرح بأنه قرأها في شغف

واهتمام. ولم يرسل إليها شيئًا من قصائده ردًّا عليها. وكان هذا من شأنه أن يؤذي شعور (إلا)، لولا علمها أن ترو يكتب إليها وقد تأثر باسمها المستعار، وحسبها أحد أفراد جنسه.

ولكن هذا موقف لا يُرضي. فإن صوتًا مغريًا همس في خاطرها أن الشاعر لو رآها لتغير الموقف. ولا ريب أنها كانت ستبدأ حديثها معه، بإظهاره على جلية الأمر، والاعتراف بأنها امرأة، لولا أن حدث ما أراح بالها وأغناها عن ذلك. فها هو ذا صديق لزوجها، يشتغل محررًا لكبرى جرائد المدينة والمقاطعة، يتغدى عندهم ذات يوم. ويذكر في أثناء الحديث عن الشاعر، أن أخاه الرسام صديق لمستر ترو، وأنه وإياه يتنزهان في (ويلز) في نفس اللحظة.

وكانت (إلا) تعرف أخا المحرر معرفة طفيفة، فكتبت إليه خطابًا في الصباح التالي تدعوه لقضاء بعض الوقت عندها في عودته من (ويلز) وترجوه أن يحضر معه -إن أمكن- صديقه مستر ترو، فإنه يهمها أن تتعرف به. وجاء رد الرسام بعد أيام قليلة يقول إنه وصاحبه (ترو) يسرهما كثيرًا أن يلبيا دعوتها في عودتهما إلى الجنوب.

وسيكون ذلك في يوم كذا من الأسبوع القادم.

ففرحت (إلا) وطارت سرورًا، فقد نجحت خطتها، وسيحضر حبيبها الذي لم تره قط: «انظري. إنه يقف من وراء الحائط يرنو إلى النوافذ. ويبدو من خلال روافدها». كذلك كانت تفكر في مرح ونشوة «وانظري. لقد ولى الشتاء وانتهى المطر إلى غير رجعة، وتبدت الأزهار وحل أوان التغريد والنشيد. وها هو ذا سجع القمري يتردد في ديارنا».

وكان من الضروري أن تتدبر تفاصيل إيواء المضيفين وإطعامهما. وكذلك فعلت في جد واهتمام. وجعلت تترقب ما يتمخض عنه اليوم الموعود والساعة الموعودة.

كانت الساعة حوالي الخامسة مساء حين سُمع رنين جرس الباب، وسُمع صوت أخي المحرر في الردهة. ومع أنها شاعرة -أو أنها تحسب نفسها كذلك- فإن الشِّعر لم يسمُ بها في هذا اليوم بحيث ينسيها أن تتأنق في ثيابها. فهي ترتدي ثوبًا من أفخر مادة وأحدث طراز، يكاد يشبه ذلك الرداء الإغريقي (الشيتون) الذي كان وقتئذ لباسًا شائعًا بين السيدات ذوات المزاج الفني الخيالي. وكانت (إلا) قد حاكته عند حائكها بشارع (بوند) في آخر مرة زارت لندن. دخل الزائر حجرة الاستقبال فنظرت إلى ظهره، ولكنها لم ترَ أحدًا يدخل سواه.. فأين.. أين روبرت ترو يا إله الحب؟

قال الرسام بعد تبادل عبارات السلام: «إني لآسف يا مسز مارشمل؛ فمستر ترو كما تعلمين رجل غريب الأطوار. بعد أن وعد بالحضور عاد يقول إنه لا يستطيع ذلك فثيابه مغبرة، وقد قطعنا عدة أميال نحمل حقائبنا وهو يؤثر الذهاب توًّا إلى منزله».

- «أهو.. هو لن يحضر؟».

- «لن يحضر. وقد طلب مني أن أعتذر عنه».

«وأين ترك.. تركته»، سألته هذا السؤال وشفتها السفلى ترتعش رعشة شديدة أحدثت ثغرة في كلامها. ولكم تاقت أن تهرب من هذا الرجل ثقيل الظل لتذرف عينيها دمعًا.

- «تركته الآن فقط في الشارع عند البوابة التي هناك».

- «ماذا تقول؟ أحقًّا مر ببابي؟».

- «نعم. وما إن بلغناه، وهو باب جميل.. بل هو أجمل قطعة فنية من حديد الزهر رأيتها في حياتي. أقول ما إن بلغنا الباب، حتى توقفنا عن المسير، وتحدثنا هناك قليلًا وحياني وانصرف... الواقع أنه الآن محزون شيئًا ما ولا يريد أن يرى أحدًا.

إنه شخص غاية في الطيبة والإخلاص لصديقه، ولكنه يبدو أحيانًا كئيبًا قلقًا. وهو يفكر في الأشياء أكثر مما يجب. فشعره كما تعلمين غرامي وعاطفي إلى درجة لا تسيغها بعض الأذواق. وقد هاجمه أحد النقاد هجومًا عنيفًا في مجلته -في العدد الذي صدر أمس. واطلع عرضًا على نسخة منها في المحطة.. ولعلك قرأتِها؟».

- «كلا..».

- «أحسن كثيرًا. فهو مقال لا يعول عليه.. من هذه المقالات المغرضة التي يقصد بها تملق جمهرة المشتركين من ضيقي العقول، لتروج المجلة على حسابهم، ولكن ترو تألم لهذا المقال تألمًا شديدًا وهو يقول إن تعمد المغالطة هو ما يحز في نفسه. وإنه يستطيع الثبات إذا هُوجم هجومًا نزيهًا. ولكنه لا يستطيعه إزاء حملة من الأكاذيب لا قبل له بدحضها، أو منعها من الذيوع والانتشار. وهذه هي نقطة الضعف في ترو. فإن انطواءه على نفسه، جعله يتأثر بهذه الحملات تأثرًا ما كان يستشعره لو أنه ممن يضربون في صخب الحياة العصرية وحياة الأعمال. ولذا لم يشأ أن يدخل هذا المنزل؛ لأن كل شيء فيه يبدو جديدًا ظاهر الثراء.. لا مؤاخذة».

- «ولكنه لا بد يعلم أن في هذا المنزل مَن يبادله أصدق العواطف وأخلصها. ألم يذكر لكِ قط أن خطابات وصلته من هذا العنوان؟».

- «نعم. نعم. ذكر لي أن جاءته خطابات من جون أيفي، وهو في اعتقاده قريب لكِ كان يزوركِ وقتذاك».

- «وهل هو يحب (أيفي) هل ذكر لك شيئًا من هذا؟».

- «لا أظنه يهتم به كثيرًا».

- «ولا بقصائده».

- «ولا بقصائده.. فيما أعلم».

إن روبرت ترو لا يحفل بمنزلها ولا بشِعرها ولا بشخصها. وما كادت تسنح لها فرصة للخروج حتى ذهبت إلى غرفة الأطفال. وحاولت أن تنفس عن عواطفها بأن توسع أطفالها تقبيلًا من غير داع، حتى تقززت فجأة حين تذكرت أنهم عطل من الجمال كأبيهم.

وهذا الرسام البليد الغافل لم يلمح من كلام (إلا) أن المعني بالدعوة إنما كان ترو. فحرص على الاستمتاع بالزيارة ما وسعه ذلك. وبدا سعيدًا في صحبة زوج (إلا)، كما بادله هذا ميلًا بميل، فجعل يريه كل شيء في المنطقة المجاورة. دون أن يلحظ أحدهما سوء حالة (إلا) النفسية.

وما كاد يمضي على سفر الرسام يوم أو يومان، حتى كانت (إلا) جالسة وحدها في الطبقة العلوية في الصباح، تلقي نظرة عجلى على الصحيفة اللندنية التي وصلت منذ لحظة، فوقع بصرها على الخبر التالي:

انتحار شاعر انتحر روبرت ترو، أحد شعرائنا العاطفيين الناهضين، الذي عرف فضله وأدبه منذ سنين. وكان انتحاره في منزله بسولنتزيا مساء الأحد الماضي، بأن أطلق الرصاص من مسدسه على صدغه الأيمن. ولا نظن القراء في حاجة إلى مَن يذكرهم بأن ترو قد استرعى أخيرًا أنظار جمهور من الأدباء، يزيد عما تهيأ له من قبل، وذلك بفضل ديوانه الجديد، الذي يتكون في أغلبه من شِعر عاطفي، وعنوانه (أناشيد لامرأة مجهولة).

وقد سبق أن نوهنا بهذا الديوان على هذه الصفحات، لما فيه من عاطفة مشبوبة نادرة، كانت هدفًا لنقد شديد -إن لم نقل وحشي- من مجلة (كذا)، ولعل هذا المقال كان سببًا من أسباب الحادث المحزن، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بشيء من ذلك، فقد وجدت نسخة من المجلة المذكورة على مكتبه. ولوحظ عليه شيء من الوجوم منذ ظهور هذا النقد.

ثم جاء تقرير المحقق، وفيه خطاب (ترو) لصديق يقيم قي جهة قريبة:

عزيزي، قبل أن تصل هذه السطور إلى يدك سأكون قد تخلصت من كل المضايقات التي تثيرها رؤية أي شيء مما حولي، أو سماعه أو معرفته. ولن أتعبك معي بشرح ما دفعني إلى ما فعلت. وإن كنت أستطيع التأكيد لك بأنه دافع منطقي معقول.. ولو أن الدهر حباني بأم أو أخت أو صديقة مخلصة عطوف، لرأيت في الحياة ما يستحق أن أحيا من أجله. ولطالما حلمت بمثل هذه الصديقة التي لم أجد إليها سبيلًا كما تعلم. وكانت هذه المرأة المراوغة التي لم أهتدِ إليها، هي ملهمة ديواني الأخير.. إنها المرأة الخيالية وحدها.. أما ما تردد في بعض الأوساط، فلا أساس له من الصحة، ولا توجد أي امرأة حقيقية وراء عنوان الديوان.. ولقد ظللت حتى النهاية لا أهتدي إليها ولا ألقاها ولا أكسبها.. وأظن من الخير أن أقرر ذلك حتى لا تؤخذ أي امرأة حقيقية بتهمة حملي على

الانتحار، بقسوتها، أو تمنعها. أخبر السيدة صاحبة المنزل أسفي لما سببته لها من نكد.. وسينسى مقامي بالحجرتين سريعًا، ولي رصيد باسمي في المصرف يفي بتسديد كل النفقات.

ر. ترو.

جلست (إلا) برهة من الزمن مذهولة من هول الخطب. ثم هرعت إلى الحجرة المجاورة، واستلقت على وجهها في السرير. لقد تطايرت نفسها شعاعًا من فرط حزنها وذهولها. وظلت حزينة محمومة ما يربو على الساعة. وكانت الكلمات تنبعث قطعًا مبتورة من شفتيها المرتعشتين.. بين الحين والحين (آه.. لو أنه علم بأمري.. أنا..

أنا.. آه.. لو أني قابلته مرة واحدة.. مرة واحدة.. ووضعت يدي على جبهته الحرى.. وقبلته.. وجعلته يعلم كم أحبه.. كم كنت أود أن أحتمل العار وزراية الناس في سبيله، وأن أحيا له أو أموت من أجله، إذَنْ لأنقذت حياته الغالية.. لكن لم.. لم يُتَحْ لي ذلك.. إن الدهر حسود حقود، وهذه السعادة لم تكتب له ولا لي».

قضي الأمر، وضاعت الفرصة، واستحال اللقاء. ومع ذلك فقد ظلت ساعة اللقاء ماثلة في خاطر (إلا) حتى في هذه اللحظة، (تلك الساعة التي ربما كانت تتاح، ولكنها لم تتح، والتي كان يهفو إليها قلب الرجل، ويتشوق إليها قلب المرأة.. والتي تصبح الحياة بعدها قفرًا يبابًا).

كتبت إلى صاحبة المنزل في سولنتزيا خطابًا بضمير الغائب، حاولت ما وسعها أن يكون أسلوبه هادئًا لا ينم عما يجيش في صدرها، وطوته على حوالة بجنيه، وذكرت في الخطاب إلى مسز هوبر أنها قرأت في الصحف الوصف المفجع لوفاة الشاعر. ولما كانت -كما تعلم مسز هوبر- قد أعجبت كثيرًا بمستر ترو في أثناء مقامها في (كوبرج هوس)، فإنها تكون شاكرة لمسز هوبر أبلغ الشكر، إذ استطاعت أن ترسل لها قدرًا يسيرًا من شعراته، قبل أن يوصد عليه التابوت. لتحفظها ذكرى للشاعر.

كما ترسل الصورة التي كانت في إطار.

ووصل بعودة البريد خطاب يحوي ما طلب. وبكت (إلا) على الصورة حفظتها في درجها الخاص، وربطت خصلة الشَّعر بشريط أبيض ووضعتها في صدرها، وكانت تخرجها بين الفينة والفينة، لتقبلها في أحد أركان المنزل بعيدًا عن الأنظار.

«ماذا في الأمر؟»، كذلك قال لها زوجها وقد رآها تفعل ذلك مرة حينما كان يطالع الجريدة: «أتبكين على شيء؟ خصلة من الشَّعر؟ لمن تكون هذه الخصلة؟».

فغمغمت قائلة: «لقد مات».

- «مَن هو؟».

«لا أريد أن أخبرك الآن إلا إذا كنت مصممًا»، كذلك كان ردها في نبرة تغص بالبكاء.

- «إذَنْ لا داعي».

- «أضايقك أني لم أجب؟.. سأخبرك يومًا ما».

- «هذا لا يضايقني أبدًا بطبيعة الحال».

وانصرف وهو يصفر بعض مقطوعات ليس بينها نغم متصل. ولما عاد إلى مصنعه بالمدينة، عاوده التفكير في هذا الأمر.

فقد ترامى إلى علمه هو أيضًا أن حادث انتحار قد وقع أخيرًا في المنزل الذي كانوا يقطنونه في سولنتزيا. ولما كان قد رأى ديوانه في يد زوجته منذ أمد وجيز، وسمع نتفًا من حديث صاحبة المنزل عنه حينما كانوا يسكنون لديها، فقد قال في نفسه فجأة: «لماذا؟ إنه هو لا ريب. يا للشيطان! كيف استطاعت أن تعرفه.. هؤلاء النساء.. ما أخبثهن!».

ثم طرد هذا الخاطر في هدوء وانسجم في مشاغله اليومية. وفي تلك الأثناء كانت (إلا) قد استقرت على رأي. فقد حددت مسز هوبر في خطابها اليوم الذي يدفن فيه (ترو). فما مر الصباح والظهيرة حتى استولت على المرأة الحساسة رغبة جامحة في أن تعرف مكان دفنه، دون أن تحفل الآن بما قد يظنه زوجها أو سواه في مسلكها الشاذ. وكتبت لمارشمل كلمة قصيرة تنبئه فيها بأنها دُعيت لقضاء بعد الظهر والمساء خارج المنزل، وأنها ستعود في صباح اليوم التالي. وتركت هذه الكلمة على مكتبه، وأحاطت الخدم بنفس هذه المعلومات، وانصرفت من المنزل سعيًا على القدم.

ولما وصل مستر مارشمل إلى المنزل بعد الظهر، بدا القلق على الخدم، وانتحت به المربية جانبًا، وأسرت إليه أن حزن سيدتها في الأيام القليلة الماضية، قد بلغ من الشدة مبلغًا يخشى معه أن تكون قد خرجت لتغرق نفسها. ففكر مارشمل في الأمر. ولكن لم يدر بخلده على كل حال أنها فعلت ذلك. ودون أن ينبس بكلمة عن وجهته، برح هو الآخر منزله، بعد أن أخبر الخدم ألا يتوقعوا حضوره هذا المساء.. واستقل السيارة إلى محطة سكة الحديد، وابتاع تذكرة إلى سولنتزيا.

كان الظلام قد أرخى سدوله حين بلغ المكان، مع أنه ذهب بالقطار السريع. وكان يعلم أن زوجته إذا كانت سبقته إلى هذه المدينة، فهي قد سافرت في قطار أبطأ من قطاره، لا يصل قبله بوقت طويل. لقد انتهى موسم سولنتزيا.. وهذا هو شارع البحر مظلم، والعربات قليلة رخيصة.. وهذا مارشمل يسأل عن الطريق إلى حي المقابر، وسرعان ما يصل. وكان الباب موصدًا، بيد أن الحارس سمح له بالدخول، بعد أن أخبره أن المكان ليس به أحد. ومع أن الوقت لم يكن متأخرًا، فإن ظلام الخريف المتكاثف، لم يجعل من السهل على مارشمل أن يتبع الطريق الملتوي، الذي

يؤدي إلى مدافن موتى ذلك اليوم فمشى على العشب، وجعل وهو يتعثر في الأوتاد، ينحني ويتأمل، يحاول أن يستبين شبحًا على صفحة السماء. فلم ير شيئًا.. وما إن انحدر إلى بقعة من الأرض وطئتها الأقدام، حتى رأى شبحًا قابعًا في جوار قبر حديث البناء.. سمعته فنهضت على قدميها.

- «(إلا)، ما هذه الحماقة؟ كيف تفرين من المنزل على هذا النحو؟ لم أسمع بشيء كهذا مطلقًا، أنا لا أحسد هذا الرجل المسكين.. ولكن من المزري أن تجني هكذا بعاشق مات، وأنتِ امرأة متزوجة لها ثلاثة بنين ورابع في الطريق. أتعلمين أن الباب قد أوصد من دونكِ، وكان من الجائز أن تحبسي هنا طول الليل؟».

فلم تحر جوابًا.

- «أرجو ألا يكون الأمر بينكما قد ذهب بعيدًا.. لمصلحتكِ أنتِ».

- «أنا لا أقبل هذه الإهانة يا وليم».

- «على أي حال لن أسمح بشيء من هذا بعد اليوم- أتسمعين؟».

قالت: «ليكن».

وتأبط ذراعها وخرجا من حي المقابر. ولم تكن العودة إلى مدينتهما ممكنة هذا المساء. ولم يشأ مارشمل أن يراهما أحد يعرفها في هذه الحالة المؤسفة، فذهب بها إلى فندق صغير بائس في جوار المحطة. ومنه استقلا قطار الصباح الباكر. وفي أثناء الرحلة لم يكد يجري بينهما حديث. فقد كان كلاهما يحس أنه في أحد هذه المواقف الكئيبة، التي تعرض في الحياة الزوجية لا يجدي فيها أي كلام. وبلغا باب المنزل في الظهيرة.

ومضت أشهر دون أن يجرؤ أحد الزوجين على أن يشير إلى هذا الحادث. وكانت (إلا) تبدو على الدوام حزينة لا تحفل بالحياة، مضناة سقيمة. والآن يقترب الموعد الذي يتحتم عليها فيه أن تقاسي آلام الوضع مرة رابعة. وليس هذا، فيما يبدو، مما يحسن حالتها المعنوية.

فقالت لزوجها يومًا: «لا أظن أني سأسلم هذه المرة».

- «هذا تشاؤم أطفال. لِمَ لا تسلمين كما سلمتِ في المرات السابقة؟».

فهزت رأسها قائلة: «أنا موقنة أني سأموت. وكان هذا يسعدني لولا نيلي وفرانك وتيتي».

- «وأنا؟».

فتمتمت في ابتسامة حزينة: «سرعان ما تجد من يخلفني.. ولك كامل الحق في هذا من غير شك».

- «(إلا)، ألا تزالين تفكرين في.. صديقكِ الشاعر؟».

لم تعترف بالتهمة، ولم تنكرها، بل أعادت قولها: «لن أنجو من الوضع هذه المرة.. إن هاتفًا يهتف بي».

وكانت هذه الأفكار بداية سيئة كما هي العادة، فما مضت ستة أسابيع، وحل شهر مايو، حتى كانت (إلا) مستلقية في غرفتها.. لا نبض ولا دم.. ولا تكاد تقوى على أن تتبع نفسًا كليلًا بنفس آخر كليل. أما الطفل الذي من أجل حياته -وما أهونها- تفارق أمه الحياة، فكان سمينًا صحيح البدن. وقبل وفاتها مباشرة قالت لمارشمل في دعة: «أريد أن أعترف لك بكل ظروف هذا.. الذي تعرف.. حين كنا في سولنتزيا. لا أدري ماذا تملكني، ولا كيف استطعت أن أنساك على هذا النحو وأنت زوجي. ولكني كنت منقبضة النفس، فظننتك قاسيًا، وخيل إليَّ أنك أهملتني، وإن ذكاءك لا يعدل ذكائي.. بينما هو يفوقني بمراحل. لعلي كنت في حاجة إلى مَن يعرف قدري، أكثر من حاجتي إلى حبيب آخر».

لم تستطع أن تتجاوز هذا الحد لشدة إعيائها. ولم تمض ساعات قليلة حتى اعترتها نوبة مفاجئة، وحم القضاء، دون أن تزيد شيئًا على ما قالته في أمر الشاعر.

والحق أن وليم مارشمل كان، كمعظم الأزواج الذي قضوا في الزوجية عدة سنين، لا تزعجه أوهام الغيرة. فلم يبدِ رغبة ما في انتزاع اعتراف، يتصل برجل طواه الردى، ومضى به عن الأحياء، فلم يعد يستطيع أن ينغص عليه العيش مرة أخرى.

ولكن بعد مرور عامين على وفاتها، كان زوجها يجمع أوراقه القديمة، فقد شاء إتلافها قبل أن يبني بزوجة جديدة. فعثر على خصلة من الشَّعر في غلاف، ومعها صورة الشاعر الراحل، وعلى ظهرها تاريخ بخط زوجته المتوفاة، هو تاريخ مقامهم في سولنتزيا.

وجعل مارشمل يطيل النظر والتأمل في الشَّعر والصورة؛ لأن خاطرًا مر بخلده. فبادر بإحضار الطفل الصغير الذي سبب وفاة أمه، وهو الآن طفل كثير الضجة، وأجلسه على ركبتيه، وأدنى خصلة الشَّعر من رأسه. ووضع صورة الشاعر رأسية على المائدة خلف الطفل، كي يستطيع أن يقارن ملامح الوجهين عن كثب.

وبخدعة من خدع الطبيعة التي نعرفها ونجهل كنهها، وجد في الطفل ملامح شديدة الشبة بالرجل الذي لم تره أمه قط. فهذه النظرات الحالمة التي ينماز بها محيا الشاعر، بادية -كما حسب- في محيا الطفل. ولون الشَّعر كلون الشَّعر.

- «حقت عليَّ اللعنة لو لم أفهم ذلك.. لقد كانت تخدعني وتعبث مع الشاعر في المنزل.. لننظر إلى التواريخ.. الأسبوع الثاني من أغسطس والأسبوع الثالث من مايو.. نعم.. نعم.. اذهب عني أيها الطفل الصغير؛ فلست مني».

* * *

## الابن يعترض

### -1-

للناظر من الخلف كان شَعرها الأسمر يثير الدهشة، ويشير إلى سر محير. فتحت قبعة من الفراء الأسود، تزين أعلاها مجموعة من الريش الأسود، كانت لمتها معقوصة ثم ملتوية ثم مستديرة على نفسها، أشبه بجدائل السلال. فكانت مثالًا نادرًا للتفنن المبتدع، وإن لم يخل من شيء تجفوه المدنية. ويستطيع المرء أن يفهم أن جدائل كهذه قد صُنعت لتبقى عامًا أو شهرًا. أما أن تدمر في موعد النوم من كل يوم، فهذا تضييع مستهتر لصنعة ماهرة.

وكانت هي التي تجدله وحدها.. هذه المسكينة، فليس لها وصيفة. وكان إعداد الشَّعر على هذا النحو هو الكفاءة الوحيدة التي تستطيع أن تزهو بها. وهذا سر آلامها التي لا تحد.

كانت شابة عليلة وإن كانت علتها لا تقعدها تمامًا، جالسة على كرسي ذي عجل، قد سحب بها على منفسح من أرض خضراء ذات سياج. حتى استقر في الصف الأمامي قريبًا من مكان العازفين، الذين كانوا يقدمون ألحانًا موسيقية في عصر يوم دافئ من شهر يونية. وكان ذلك في متنزه صغير في إحدى ضواحي لندن. وقد أقامت هذا الحفل جمعية محلية قصد التبرع بإيراده لمشروع خيري.

والمدينة الكبرى -لندن- عالم يحوي عوالم كثيرة. ومع أنه لم يسمع أحد خارج الحي المجاور بالمشروع الخيري أو الفرقة الموسيقية أو الحديقة، فقد غص المكان برائديه المشوقين، الذي أحاطوا علمًا بكل هذا.

وبينما الموسيقى تصدح، وقعت أنظار المستمعين على السيدة ذات الكرسي، التي كان شَعرها أسمر، ومكانها البارز يغريان بالتأمل والاستطلاع. ولم يكن من اليسير اجتلاء طلعتها، غير أن جدائل شَعرها المتسقة التي ألمعنا إليها، وأذنها وعنقها البيضاوين، وقوسًا من وجهها ليس مجعدًا ولا شاحبًا، كان كل أولئك بشائر تغري بالأمل في شهود جمال رائع من أمام. وكثير ما يخيب مثل هذا الأمل، إذا ما كشفت الحقيقة سافرة. وكان هذا هو الحال في هذه المرة. فحينما أدرات السيدة رأسها رأى الناس وجهًا ليس بالجميل، كما حسبوا وتمنوا.. دون أن يعرفوا لهذا التمني سرًّا.

فمن جهة كانت السيدة أسنَّ مما حسبوها (والشكوى من السن شائعة ويا للأسف) ومع ذلك فقد كان وجهها جذابًا لا ريب، ولا يبدو فيه أثر علة. وكانت تفاصيل ملامحها الدقيقة تتكشف كلما أدارت وجهها لتحدث صبيًّا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره يقف إلى جوارها، وتنبئ قبعته وسترته عن انتسابه لإحدى المدارس الخاصة المعروفة. وقد سمعه القريبون منه يناديها (أماه).

ولما انتهت الحفلة وأخذ المستمعون في الانصراف اختار كثير منهم أن يسلك في خروجه طريقًا أقرب منها. وأدار جلهم رأسه إليها ليحظى عن كثب بنظرة كاملة للمرأة الشائقة، التي ثبتت في

كرسيها حتى يخلو الطريق، ويُستطاع سحب الكرسي إلى الخارج دون أن يعوقه عائق. وكأنما كانت تتوقع نظراتهم، ولا تمانع في إشباع فضولهم، فكانت تقابل أعين كثير من مشاهديها برفع عينيها، فبانت هاتان دائرتين سمراوين وادعتين ودودين، تكمن في نظرتيهما أنة خافتة.

سُحب الكرسي إلى خارج الحديقة، ثم على الطوار.. حتى غابت عن الأنظار، والتلميذ يمشي إلى جوارها. وقيل لبعض المستفسرين عنها ممن شهدوها وهي تمضي، إنها الزوجة الثانية لأسقف أبرشية مجاورة.. وإنها عرجاء. وكان يعتقد عمومًا أنها امرأة لها قصة، قصة بريئة، ولكنها قصة من نوع أو من آخر.

وفي أثناء حديثهما وهما عائدان إلى المنزل، قال لها الصبي وهو يسير إلى جانبها، إنه يرجو ألا يكون أبوه قد احتاج إليهما في هذه المدة، فأجابت: «إنه (كانوا) مستريحًا غاية الراحة في الساعات الأخيرة، فمن المؤكد أنه لم يفتقدها» فقال التلميذ متعجبًا في دقة وإصرار بلغا مبلغ الخشونة: «(كان) يا أمي العزيزة لا (كانوا).

لا شك أنكِ تعرفين ذلك بعد هذا الزمن الطويل». فسرعان ما صححت خطأ دون أن تعترض على موقفه منها، أو تحاول الثأر -وقد كان ميسورًا- فتأمره بأن يمسح فمه مما علق به من فتات في أثناء محاولته الماكرة أن يأكل قطعة من الحلوى دون إخراجها من الكيس الذي كانت محفوظة فيه. وبعد ذلك مضت السيدة المليحة والصبي قدمًا في سكون.

ويرجع هذا الخطأ النحوي إلى شيء يمت إلى نشأتها بسبب. فاشتمل عليها حلم من أحلام اليقظة، تدل الظواهر كلها على أنه حلم ذو طابع حزين، ولعلها كانت تتساءل: ترى أأحسنت أم أساءت بتشكيل حياتها على هذه الصورة، حتى صارت إلى ما صارت إليه؟

ففي زاوية نائية في شمال وسكس على مسافة أربعين ميلًا من لندن، قرب المدينة الريفية المزدهرة أولد بركهام، كانت قرية جميلة، فيها كنيستها وأسقفها، قرية تعرفها هي جيدًا وإن كان ابنها لم يرها قط، هي قريتها ومسقط رأسها (جايميد)، وقد حدث أول حادث ذي علاقة بمركزها الراهن في هذه القرية، حينما كانت لا تزال فتاة لم تتجاوز التاسعة عشرة.

كم كانت تذكره جيدًا، ذلك الفصل الأول من مهزلتها المؤسية.. تذكر موت الزوجة الأولى لزوجها الأسقف الجليل. لقد حدث هذا في ليلة من ليالي الربيع. وكانت هي -من حلت محلها منذ سنين عدة- تشتغل حينذاك خادمًا لغرفة الاستقبال في منزل الأسقف. وبعد إنجاز كل ما يمكن إنجازه وإعلان وفاة السيدة، ذهبت الخادم في الغسق لتزور أبويها، وكانا يقيمان في نفس القرية، لتنهي إليهما النبأ الأليم. وبينما هي تفتح الباب الأبيض المتأرجح، وتنظر صوب الأشجار القائمة إلى الغرب، حاجبة ذلك الضوء الخافت الذي ينبعث من سماء المساء. إذ تبينت دون كبير دهشة شبح رجل واقف عند السور. فقالت في دهشة خبيثة مفتعلة، جريا على مألوف العادة: «أوه. سام. لقد خفت منك».

وسام هذا بستاني شاب من معارفها. أخبرته بتفاصيل الحادث الأخير، ووقف هذان الشابان صامتين غارقين في هذا التفكير الفلسفي السامي الهادئ، الذي يغشى الفلاسفة حين تحدث مأساة في مكان قريب، أصابت بعض مَن يمتون إليهم بصلة، ولكنها لم تصب الفلاسفة أنفسهم.

ثم سألها سام: «وهل ستظلين في دار الأسقف كما كنتِ تمامًا؟».

لم يكد يدور لها هذا الموضوع في خاطر، فقالت: «نعم على ما أظن. يُخيَّل إليَّ أن كل شيء سيظل على ما هو عليه».

سار معها نجو بيت أمها، وسرعان ما التفت ذراعه بخصرها في خفة، ففكتها في رقة، ولكنه أعاد الكرة، فلم تفعل شيئًا.

- «إنك لا تعرفين يا عزيزتي إن كنت ستبقين في منزل الأسقف أم لا. وربما تحتاجين إلى بيت.. وسوف أستطيع أنا أن أقدم لكِ بيتًا في يوم من الأيام. وإن كنت لا أستطيع ذلك في هذه اللحظة».

- «ما هذا يا سام. أهكذا تتسرع؟ أنا لم أفه يومًا من الأيام بكلمة تنم عن ميلي إليك! وكل ما حصل كان من صنعك. فأنت الذي تطاردني».

«لنفرض. ماذا يمنع أن أحاول معكِ كما يحاول الآخرون؟»، فصاحت وقد وضعت يدها على فمه قائلة: «كلا يا سام. يجب أن تكون أكثر جدًّا في ليلة كهذه».

وودعته دون أن تسمح له بتقبيلها أو الدخول معها.

وكان الأسقف الأيم في سن الأربعين تقريبًا، من أسرة عريقة، ولم ينجب أطفالًا، وكان من بادئ الأمر يميل في حياته إلى العزلة. يحمله على ذلك أن ليس في القرية مستوطنون من ملاك الأراضي. ثم جاءت وفاة زوجته فزادته إمعانًا في الانزواء عن الناس، فصاروا لا يرونه إلا لمامًا. وقلَّ بمضيِّ الزمن تتبعه لما يسمونه حركات الإصلاح في العالم الخارجي. وظلت نفقات منزله لا يتناولها تغيير حتى بعد انقضاء أشهر على وفاة زوجته. فلديه طباخة، وخادم للمنزل، وخادم لغرفة الاستقبال، ورجل لقضاء المهام خارج المنزل.

وكان هؤلاء يؤدون أعمالهم أو يهملونها، حسبما تشاء طبائعهم، دون أن يدري الأسقف عنهم شيئًا. على أنه ما لبث أن تراءى له أن خَدَمَهُ لا عمل لهم في أسرة صغيرة، تتكون من فرد واحد، وتأثرًا بهذه الفكرة قرر أن يخفض عدد الخدم. ولكن سوفي سبقته إلى ما أراد. فذكرت له ذات مساء أنها تريد أن تعتزل العمل.

فقال لها: «ولماذا؟».

- «لأن سام هوبزون طلب مني الزواج يا سيدي».

- «وهل تريدين الزواج؟».

- «لست أتلهف عليه، ولكنه يمنحني بيتًا. وقد سمعنا أن إحدانا لا بد أن تعتزل».

وبعد يوم أو يومين قالت له: «أنا الآن لا أريد أن أخرج يا سيدي، إذا لم يكن لديك مانع، فقد تشاجرت مع سام».

فنظر إليها، ولم يكن من قبل قد أعارها التفاتًا، وإن كان كثيرًا ما أحس بما يشيعه وجودها في الحجرة من غبطة واطمئنان. كم هي كالقطيطة في لينها ودعتها!

إنها الخادمة الوحيدة التي لها به صلة مباشرة مستمرة. فماذا عساه أن يفعل إذا خرجت سوفي؟

لم تخرج سوفي، بل خرجت خادمة سواها. وعادت الأمور إلى سابق هدوئها.

فلما مرض مسار (توايكوت)، الأسقف كانت سوفي تحضر له الطعام. وفي ذات يوم، ما كادت تخرج من الغرفة، حتى سمع صوتًا عاليًا على الدرج، فقد انزلقت سوفي وفي يدها الصينية، والتوت قدمها، ولم تستطع الوقوف. فاستدعى جراح القرية، وتقدمت صحة الأسقف، ولكن ظلت سوفي طويلًا عاجزة عن الوقوف.

وأُمرت ألا تسرف في مشي أو عمل يستلزم وقوفها على قدميها طويلًا. وما كادت صحتها تتحسن شيئًا ما، حتى خاطبت الأسقف على حدة، وذكرت له أن واجبها يقتضيها أن تبارح منزله، ما دام المشي والانتقال قد حُرِّما عليها، وهي لا تستطيعهما في الواقع. وأن في وسعها أن تشتغل بحياكة الملابس مع خالتها.

فاهتزت مشاعر الأسقف أيما اهتزاز لما أصاب الفتاة من أجله، وقال مندفعًا: «كلا يا سوفي، عرجاء أو غير عرجاء، لن أدعكِ تخرجين. يجب ألا تتركيني بعد اليوم».

ثم اقترب منها. وهنا لا تستطيع أن تذكر بالضبط إلا أنها أحست بشفتيه على خدها. ثم طلب إليها أن تتزوجه. ولم تكن سوفي تحبه تمام الحب، غير أنها كانت توقره إلى درجة تكاد تبلغ التقديس. وحتى لو أنها شاءت التملص منه، فأنى لها الجرأة على رفض شخصية لها، في نظرها، هذا المركز الجليل السامي؟ لذا وافقت على أن تكون له زوجًا.

وهكذا حدث في صباح صحو، حينما كانت الكنيسة مفتوحة لتجديد الهواء كالمعتاد، والطيور المغردة تخفق بأجنحتها في داخل الكنيسة، وتقف على عارضات السقف، أن جرت مراسم الزواج في المقصورة الخاصة بذلك.. دون أن يعلم نبأها إنسان. دخل الأسقف من أحد الأبواب، ومعه

قسيس كنيسة مجاورة. ودخلت سوفي من الباب الآخر، يتبعها شخصان لا مندوحة من وجودهما، وبعد برهة قصيرة، خرج للعالم زوجان جديدان.

كان مستر توايكوت يعلم حق العلم أنه قضى على مركزه الاجتماعي بهذا الزواج، وإن كانت أخلاق سوفي لا تشوبها شائبة. فأعد للموقف عدته، واتفق مع أسقف كنيسة في جنوب لندن، على أن يحل كل منهما محل الآخر. وانتقل الزوجان إلى منزلهما الجديد في أقرب وقت مستطاع، تاركين منزلهما الريفي الجميل، بأشجاره وشجيراته وأرضه، إلى منزل ضيق مغبر، في شارع طويل مستقيم، وقد استبدلا بترانيم أجراسهما الفاخرة قرقعة الجرس الواحد، وهي شر ما تُبتلى به أُذُن الإنسان.. وكان كل ذلك من أجلها. ومهما يكن من أمر هذا الانتقال فقد أبعدهما عن كل مَن يعرف مركزها السابق، وجعلهما أبعد عن رقابة الناس مما لو كانا في أبرشية ريفية.

كانت سوفي -المرأة- شريكًا ممتعًا جذابًا إلى أقصى حد يتمناه رجل. أما سوفي -السيدة- فلم تكن تخلو من مواطن ضعف. وقد أظهرت كياسة وحذقًا طبيعيًّا فيما يتعلق بالشؤون المنزلية البسيطة، المتصلة بالأشياء والأساليب. ولكنها كانت أقل بصرًا واستعدادًا فيما يُدعى الثقافة. فقد مضى على زواجها أكثر من أربعة عشر عامًا، بذل زوجها في أثنائها جهدًا كبيرًا لتعليمها.. ومع ذلك فهي لا تزال تخلط بين استعمال كلمتي (كان) و(كانوا) الشيء الذي لا يبعث معارفها القليلين على احترامها. غير أن ما يقض مضجعها أكثر من سواه، في هذا الصدد، هو ابنها الوحيد، الذي لم يدخر ولن يدخر مالًا في سبيل تعليمه، قد كبر الآن، وصار يدرك نواحي النقص في أمه.. والأدهى من هذا، أن هذه النواحي صارت تهتاجه وتوغر صدره.

وعلى هذا المنوال عاشت في المدينة، تقضي ساعات تجدل شَعرها الجميل.. حتى تضاءل لون خدها التفاحي، وصار ورديًّا شاحبًا أشد الشحوب. أما قدمها، فلم تستعد بعد الحادث قوتها، واضطرت في أغلب الأحيان أن تتفادى السير، وبدأ زوجها يحب لندن لما فيها من حرية، وبعد عن رقابة الناس. غير أنه كان يكبر سوفي بعشرين سنة، وقد أصيب أخيرًا بمرض خطير. ومع ذلك فهو يشعر في ذلك اليوم بأن صحته لا بأس بها، ويسمح لها باصطحاب ابنها راندولف لسماع الموسيقى.

* * *

نلمحها بعد ذلك مرة أخرى في مسوح الحداد، فقد ترملت. إذ لم يبرأ مستر توايكوت من مرضه قط. وهو الآن ثاو في مقبرة مزدحمة إلى الجنوب من المدينة الكبرى، ولو نهض كل موتاها وبعثوا إلى الحياة. لما عرفه منهم أحد، ولا تذكره أحد. وقد شيعه ابنه إلى قبره، كما يقضي بذلك واجبه، ثم عاد إلى المدرسة حيث هو الآن، وعُوملت سوفي خلال هذه الأحداث كما تُعامل طفلة، ولقد كانت طفلة في طبيعتها، وإن لم تك كذلك في سنها. فلم يترك لها حرية التصرف في شيء من تراث زوجها، سوى معاشها الشخصي المتواضع. وكان زوجها يخشى أن يستغل أحد قلة خبرتها، فأودع عند الأوصياء كل ما استطاع. وخصص جزءًا من ماله لإتمام تعليم ابنه في المدرسة الخاصة، ثم في جامعة أُكسفورد، ثم في الدراسة الكهنوتية. فلم يعد لديها ما يشغلها في حقيقة الأمر، سوى أن تأكل وتشرب، وأن تخلق من الكسل عملًا، وتمضي في جدل شَعرها الأسود وإدارته، كل همها أن تستبقي المنزل مفتوحًا لابنها كلما جاءها في عطلة مدرسية.

ولما كان زوجها يقدر أنه سيموت قبلها بزمن طويل، فقد اشترى لها إبان حياته منزلًا صغيرًا في الضاحية لا يكاد يتصل بما حوله، ويقع في نفس الطريق الطويل المستقيم الذي تطل عليه الكنيسة ومنزل الأسقف، على أن يكون لها هذا المنزل ما طابت لها الإقامة فيه. وهي تقيم الآن به، وتتأمل رقعة من الأرض الخضراء أمامها، وتتفرج من خلال السور على حركة النقل المستمرة، أو تطل من النافذة في الطبقة الأولى، معتمدة على سجفها، مرسلة نظراتها بعيدًا هنا وهناك بين الأشجار القاتمة، والهواء المكفر وواجهات المنازل السنجابية، حيث كانت تتجاوب الأصوات المألوفة في شارع رئيس من شوارع الضواحي.

وكان ابنها بمعلوماته المدرسية الأرستقراطية، وأجروميته، وجفائه وتبرمه، يفقد بطريقة ما عواطف الطفولة التي تتسع حتى تشمل الشمس والقمر... تلك العواطف التي ولدت فيه كما ولدت في سائر الأطفال، وكان يهتز لها قلب أمه، فقد كانت لا تزال طفلة في طبيعتها. ضيَّق الصبي مدى هذه العواطف وقصرها على بضعة آلاف من الأثرياء وذوي الألقاب، ليسوا إلا صورة مزورة مزيفة لآلاف الملايين غيرهم، الذين لا يهمون هذا الصبي في شيء. فظلت الشقة التي تفصله عن أمه تزيد اتساعًا يومًا بعد يوم.

ولما كانت سوفي تعيش بين أهل الضاحية من صغار التجار والكتبة. وصارت الآن تقضي كل وقتها مع خادمتين في منزلها، كان من غير المستغرب أنه ما كاد يموت زوجها، حتى تطايرت أذواقها القليلة غير الأصيلة، التي أخذتها عنه. وأصبحت في نظر ابنها أمًّا قضى عليه سوء حظه، أن يندى جبينه لأخطائها وضعة منشئها.

فهو حتى الآن لم تكتمل رجولته -إن كانت ستكتمل يومًا ما- ليدرك مدى ضآلة عيوب أمه، بالقياس إلى حبها الحنون المتلهف الذي أفعم قلبها، واحتبس فيه، إلى أن يأتي وقت يكون الابن فيه أكثر استعدادًا لأن يقبله، هو أو سواه من الناس أو الأشياء. ولو أنه كان يعيش معها في المنزل لحظي بكل هذا الذخر العاطفي. ولكنه زاهد فيه أشد الزهد، فظل الحب مدخرًا.

وقد غدت حياتها كئيبة لا تحتمل، فهي لا تستطيع السير أو النزهة، ولا تحب الخروج في عربة، بل إنها في الواقع لا تحب السفر إلى أي مكان. ومر قرابة عامين، لم يجد فيهما من جديد. وظلت هي تطل على طريق الضاحية المنبسط أمامها، مفكرة في قريتها ومسقط رأسها، فهي تحن للرجوع إليه: «كم يكون ممتعًا.. حتى العمل في الحقول».

ولحرمانها من الرياضة كانت تأرق في غالب الأحيان. وكانت تستيقظ في الليل أو في الصباح الباكر لتلقي نظرة على الشارع الذي لا يزال خاويًا، والذي تقف به المصابيح كأنها حراس في انتظار مرور مركب. وكان شيء يشبه الموكب يمر كل يوم حوالي الساعة الواحدة، فتمر المركبات الريفية بأكداس الخضراوات في طريقها إلى سوق (كوفنت جاردن). وكانت كثيرًا ما ترى هذه المركبات تزحف في هذه الساعة الهادئة من غبشة الضوء، مركبة في إثر مركبة، حاملة أكداسًا خضراء من الكرمب، تميل للسقوط ولكنها لا تسقط أبدًا، وأكداسًا من السلال كأنها الجدران، تحوس مقادير كبيرة من الفاصوليا والبازلاء. وأكوامًا من اللفت في شكل الأهرام وبياض الثلج، وهوادج تختلط فيها منتجات شتى، تسير الهوينا وراء خيل مسنة تبدو دائمًا صابرة حائرة، تتساءل بين كل سلعة جافة وأخرى: ترى لماذا كان علينا دائمًا أن نشتغل في هذه الساعة الساكنة، بينما يتاح لسائر الأحياء أن تستريح؟ وكان مما يسري عنها إذا حالت كآبتها وعصبيتها بينها وبين النوم، أن تتدثر في معطفها، وتشهد التماع الخضراوات وابتسامها للحياة، حين تواجه المصباح. وتنظر إلى الحيوانات تتصبب عرقًا، وتسير لامعة بعد ما قطعته من أميال في السفر.

وكان يشوق سوفي ويفتنها، أن ترى أناسًا وعربات وعليهم سمات الريف، ماضين في جو المدينة، باعثين فيه حياة تخالف تمامًا حياة من يكدحون في نفس ذلك الطريق في رابعة النهار. وذات صباح كان رجل يرافق عربة محملة بالبطاطس، ينظر عن كثب إلى واجهات المنازل في أثناء سيره. فاعترت سوفي رعدة عاطفية، فقد أحست أن هذا الشكل مألوف لها. فأعادت إليه النظر. ولما كانت مركبته من طراز قديم، ومقدمها أصفر، كان من السهل تمييزها. وفي الليلة الثالثة رأتها سوفي مرة أخرى. وكان الرجل الذي يسير إلى جانبها هو مَن تخيلته. هو سام هوبزون، الذي كان بستانيًا في جايميد، والذي كاد أن يتزوجها في أحد الأوقات.

وكانت تفكر فيه بين الفينة والفينة وتتساءل: ترى ألم تكن الحياة معه في كوخ، خيرًا من الحياة التي رضيت أن تحياها؟ لم تكن قد هامت به فيما مضى، ولكن حالتها الراهنة الكئيبة شاقتها إلى تجديد عهده، شوقًا حنونًا رقيقًا لا سبيل إلى المبالغة فيه، فآوت إلى سريرها تفكر.. متى يعود تجار الخضر الذين يقصدون في المدينة في الساعة الواحدة أو الثانية صباحًا، واستطاعت أن تذكر في

شيء من الغموض، أنها ترى مركباتهم تعود خاوية في وقت ما قبل الظهر، ولا تكاد تستبينها وسط حركة المرور العادية.

كنا لا نزال في إبريل. ولكنها في هذا الصباح فتحت النافذة بعد تناول طعام الإفطار وجلست ترقب. وكانت الشمس الخافتة تسطع بأكملها فوقها. وقد تظاهرت أنها تخيط شيئًا، غير أن عينها لم تَسْهُ عن الطريق. وبين الساعة العاشرة والحادية عشرة، تراءت العربة المرجوة وهي خاوية، عائدة، ولكن سام لم يكن يتلفت حوله هذه المرة، وسارت به العربة وهو يقظان حالم.

فصاحت سوفي: «سام».

فالتفت فجأة وقد تهلل وجهه، وكلف صبيًّا صغيرًا أن يمسك الحصان، ونزل من فوق العربة، وسار حتى وقف تحت النافذة.

فقالت له سوفي: «سام، ليس يسهل عليَّ أن أنزل، وإلا فعلت. أكنت تعلم أني أقيم هنا؟».

- «كنت أعلم يا مسز توايكوت أنكِ تقيمين في مكان ما من هذا الشارع، وكثيرًا ما بحثت فيه عنكِ».

ثم ذكر لها بإيجاز سبب وجوده في ذلك المكان. فمنذ أمد بعيد، ترك عمله في حدائق القرية القريبة من (أولد بركهام). وهو الآن يشرف على حديقة تاجر للخضر في الجهة الجنوبية من لندن. وصار من واجبه أن يذهب إلى (كوفنت جاردن) بكميات من الحاصلات في مركبات مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع. وفي رده على استقصائها الدقيق، اعترف بأنه أتى إلى هذه المنطقة بالذات؛ لأنه قرأ في صحيفة (أولد بركهام) منذ عام أو عامين نبأ وفاة أسقف (جايميد) السابق في جنوب لندن. فأثار هذا شوقًا جارفًا لم يستطع إخماده، لمعرفة مكان سكناها. وهذا دعاه إلى التردد على هذه المنطقة حتى يحصل على وظيفته الحالية.

وجعلا يتكلمان عن قريتهما ومسقط رأسيهما في لهجتهما العزيزة.. لهجة وسكس الشمالية، ويذكران ملاعب الطفولة. وقد حاولت أن تستشعر وقار مركزها الحالي، وأن تتدارك نفسها، فلا تكون صريحة غاية الصراحة مع (سام). ولكنها لم تستطع التماسك، فقد نم تهدج صوتها عن دمعة حائرة في عينيها.

فقال سام: «لستِ ناعمة البال يا مسز توايكوت. يخيل إليَّ ذلك».

- «لا. طبعًا. فلم يمضِ على وفاة زوجي عامان».

- «كنت أقصد شيئًا آخر. هل تودين العودة إلى بلدكِ؟».

- «هذا بلدي مدى الحياة. وهذا المنزل ملكي.. ولكني فهمت». وهنا كشفت عما يعتمل في نفسها من الخواطر، فقالت:

- «نعم يا سام. إني أحن إلى بلدي.. بلدنا.. لكم وددت أن أكون هناك، وألا أهجره أبدًا وأن أدفن في ثراه».

غير أنها ما لبثت أن عادت إلى نفسها فقالت: «على أن هذه نزعة وقتية عابرة. فلي ولد عزيز كما تعلم، وهو الآن في المدرسة».

- «في مدرسة قريبة من هنا على ما أظن، فأنا أرى كثيرًا من التلاميذ في هذا الشارع».

- «أوه! كلا. ليس في إحدى هذه المدارس الحقيرة البائسة. إنه في مدرسة خاصة من أرقى مدارس إنجلترا».

- «طبعًا. طبعًا. لا مؤاخذة: فقد نسيت يا سيدتي أنكِ صرتِ من كرائم السيدات منذ سنين عدة». فأجابت في حزن: «كلا. لست من كرائم السيدات.. ولن أكون كذلك مطلقًا. ولكن ابني سيد من السادة. وهذا هو الإشكال. فما أشقه عليَّ!».

* * *

وسرعان ما توثقت بينهما العلاقة، التي عادت على هذا النحو العجيب. فكثيرًا ما كانت تطل من النافذة، لتحظى بحديث قصير معه في الليل أو في النهار. وكان يؤسفها أنها لا تستطيع السير مع صديقها القديم الأوحد في نزهة قصيرة، لتحدثه في طلاقة لا تتهيأ لها وهو واقف أمام المنزل. وذات مساء في أوائل يونية، بينما كانت ترقبه بعد أن غابت عن النافذة بضعة أيام، دلف إلى الباب الخارجي، وقال في صوت متلهف: «أليس من المفيد لصحتكِ، أن تخرجي لتستمعي بالهواء؟

ليس في العربة اليوم إلا نصف حمولتها.. فلماذا لا تركبينها معي إلى (كوفنت جاردن؟) وهناك مقعد على الكرمب لطيف، غطيته بشوال، وتستطيعين أن تعودي إلى منزلكِ في عربة قبل أن يستيقظ أحد».

مانعت بادئ الأمر، ثم لم تلبث أن غلبها الشوق، وسرعان ما ارتدت ملابسها، ودثرت نفسها بمعطف، واتخذت على وجهها نقابًا. ثم نزلت تظلع[1] على الدرج، معتمدة على سياجه، بطريقة تلجأ إليها إذا دعت الضرورة القصوى. ولما فتحت الباب وجدت (سام) على مرقاته، فحملها على ذراعه واجتاز بها الفناء الأمامي الصغير، ثم وضعها في المركبة. ولم يكن أحد يرى أو يسمع على طول الطريق المستقيم الذي ينبسط إلى غير نهاية، والذي تسهر عليه دائمًا مصابيح متقاربة في كلا الجانبين.

كان الهواء منعشًا، شأن هواء الريف في هذه الساعة. وكانت النجوم تتلألأ في أرجاء السماء، عدا الجانب الشمالي الشرقي، حيث لاح ضوء الفجر الأغبش.

وضعها سام بعناية.. وأطلق العربة..

وأخذا يتكلمان، كما كانا يفعلان في الأيام الخوالي، غير أن سام كان يزجر نفسه بين الحين والحين، كلما أحس أنه ذهب في إسقاط الكلفة إلى حد غير لائق. أما هي فقد قالت لنفسها في حيرة أكثر من مرة: «تُرى أكان يجدر بي أن أطلق العنان لعواطفي على هذا النحو؟»، ثم استدركت قائلة: «ولكنني أعيش في منزلي عيشة مسرفة في العزلة، وهذه النزهة تبهجني».

- «لا بد أن تكرري هذه الرحلة يا مسز توايكوت، فهذه أنسب الساعات للاستمتاع بالهواء».

زاد النور رويدًا رويدًا، وأخذت العصافير تغرد فوق أشجار الطريق، وازدحمت المدينة من حولهما. ولما اقتربا من النهر كان النهار قد بزغ فشهدا شمس الصباح متوهجة رائعة صوب كنيسة القديس بولس، وكان النهر في ناحيتها ملتمعًا لا يسري على صفحته شراع.

ولما اقتربا من (كوفنت جاردن) وضعها في عربة، وافترق الصاحبان، وكل منهما ينظر في وجه صاحبه نظرة الصديق القديم.. وهل كانا في الواقع إلا كذلك؟

وبلغت المنزل في أمان، وطلعت حتى بابه، ففتحته بمفتاحها الصغير، ودلفت إلى الداخل دون أن يراها أحد.

تجددا حيويتها من أثر الهواء ولقاء سام، وبدا خداها في لون الورد، فقد صار لديها إلى جانب ابنها شيء آخر تعيش من أجله. ولم تدرك، لصفاء فطرتها وسلامة طويتها أنها ارتكبت خطأ لا مراء فيه، حين أقدمت على ما أقدمت عليه.. خطأ يعده العرف خطيئة كبرى.

وسرعان ما أغريت بالذهاب معه مرة أخرى، وكان حديثهما في هذه المرة عاطفيًّا بادي الرقة. فقد أكد لها سام أنه لن ينساها أبدًا، وإن كانت قد أساءت معاملته شيئًا ما في وقت ما. وبعد تردد طويل كاشفها بخطة يستطيع أن ينفذها، ويتوق إلى نجاحها؛ لأنه لا يعبأ بعمله في لندن. ذلك أنه يريد أن يفتتح متجرًا للخضر في (أولد بركهام)، حاضرة الناحية التي شهدت مولديهما. وهو يعلم أن هناك دكانًا يملكه قوم مسنون، يريدون بيعه.

- «ولماذا لا تنفذ هذه الخطة يا سام؟»، كان هذا سؤالها في شيء من الأسى والأسف.

- «لأني لست واثقًا أنكِ ستشاركينني الحياة هناك. أنا أعلم أنكِ لن تفعلي، ولا تستطيعين أن تفعلي.. فسيدة مثلكِ، لها هذا المركز الرفيع منذ زمان طويل، لا تستطيع أن تتزوج من مثلي».

فأجابت وقد أخافتها الفكرة: «نعم. أكاد لا أعتقد أني أستطيع».

فقال في حماسة: «إذا كنتِ تستطيعين، فكل ما عليكِ أن تجلسي في حجرة الاستقبال الخلفية، وتنظري من خلال الحاجز الزجاجي، لتراقبي الأشياء في غيبتي. لن يعوقكِ العرج عن ذلك، ولن أدخر وسعًا في إبقائك سيدة محترمة يا سوفي العزيزة.. لو كان لي أن أفكر في ذلك!»، كذلك قال في توسل وضراعة.

فأجابت وقد وضعت يدها على يده: «سام. سأكون صريحة معك. لو أن الأمر يتعلق بي وحدي لأجبتك في سرور، وإن أفقدني هذا الزواج كل ما أملك».

- «إنه لا يهمني.. فنحن لا نعول على شيء من ذلك».

- «هذا كرم منك يا أعز الناس. ولكنَّ شيئًا آخر يهمني.. فلي ولد، وأنا أحس أحيانًا حين يشتمل عليَّ البؤس أنه ليس لي، وإنما هو أمانة في عنقي أرعاها لزوجي الراحل. هذا الولد لا يكاد ينتسب إليَّ، بينما ينتسب إلى أبيه أتم نسبه. فتعليمه أرقى ما يكون، وحظي من التعليم أقل ما يكون، بحيث أشعر أني غير جديرة به.

هذا الغلام يجب أن يُحاط علمًا».

فقال سام، وقد فهم رأيها ومخاوفها: «نعم... من غير شك»، ثم أضاف: «ومع كل، فأنتِ تستطيعين أن تفعلي ما تشائين يا سوفي -آسف يا مسز توايكوت- فأنتِ لست ابنته، وإنما أنتِ أمه».

- «آه. إنك لا تعلم! لو أني أستطيع، لتزوجتك يا سام في يوم من الأيام. ولكن لا بد أن تمهلني قليلًا ريثما أفكر».

كان هذا وعدًا يكفيه. فانصرف مغتبطًا مسرورًا. أما هي فلم تكن مسرورة ولا مغتبطة؛ لأن مكاشفة راندولف تبدو في نظرها أمرًا مستحيلًا. ومع ذلك فهي لا تستطيع أن تنتظر، ريثما ينتقل إلى أوكسفورد، فلا يكون لتصرفاتهما أثر كبير في حياته. ولكن هل سيقبل الفكرة يومًا ما؟ وإذا لم يقبل فهل تستطيع أن تتحداه؟

لم تكن قد فاهت بكلمة عن موضوعها، حتى أقيمت في (يوم الرب)[2](2) مباراة (الكريكت) السنوية بين المدارس الخاصة. وكان سام قد عاد إلى (أولد بركهام). وفي ذلك اليوم شعرت مسز توايكوت أنها أقوى صحة من المعتاد. فذهبت تشهد المباراة مع راندولف، واستطاعت أن تدع كرسيها وتتمشى بين الحين والحين. وما لبثت أن لمعت في ذهنها فكرة هي أنها تستطيع أن تشير إلى الموضوع عرضًا في أثناء تجوالهما بين النظارة، حين يكون اهتمام راندولف موجهًا لشهود اللعب والحماسة له، بحيث تتضاءل المسائل المنزلية، وتخف في ميزانه، إزاء روعة هذا اليوم. فجعلا يسيران تحت شمس يوليو الشاحبة، هذان الشخصان البعيدان كل البعد، القريبان كل القرب، ورأت سوفي أغلب الطلبة يرتدون كابنها زيقًا أبيض عريضًا أو قبعة صغيرة، كما رأت هنا وهناك صفوفًا من العربات الفخمة، تختلط تحتها بقايا الطعام الفاخر من عظام، وقشور فطائر، وزجاجات شمبانيا وأكواب وأطباق ومشوشات وأواني العائلة الفضية، بينما يجلس الآباء والأمهات الفخورات داخل تلك العربات.. ولكنها لم ترَ بينهن أمًّا فقيرة مثلها. ولولا أن راندولف من هؤلاء السادة، ولولا أنه قصر اهتمامه عليهم وعلى الطبقة التي ينتسبون إليها، لسارت الأمور سيرة سعيدة.

وعلا فجأة هتاف جمهرة من الأقارب لضربة تافهة بالمضرب، وقفز راندولف متحمسًا في الهواء ليرى ما حدث. واسترجعت سوفي في ذهنها الجملة التي كانت قد أعدتها. ولكنها لم تستطع أن تنبس بها، فالظرف غير مناسب؛ لأن التباين شديد بين قصتها وبين مظاهر الأبهة التي شب ابنها على اعتبار نفسه منسوبًا إليها.

ومن شأنه ولا ريب أن يهدم آمالها نهائيًّا، فانتظرت حتى يحل وقت أنسب.

وكان ذلك في أمسية، وكانا على انفراد في منزلهما البسيط في الضاحية حيث الحياة قاتمة، فبددت السكون المخيم بأن أعلنت أنها قد تتزوج مرة ثانية. ثم لطفت من وقع هذا الإعلان بتأكيد قاطع أن

هذا الزواج لن يحدث إلا بعد وقت طويل، حين يحيا حياة مستقلة ولا يكون في حاجة إليها.

فرأى الفكرة معقولة جدًّا. وسألها إن كانت اختارت شخصًا ما، فترددت. وبدت عليه الشكوك. فقال إنه يأمل أن يكون الزوج سيدًا.

فأجابت في تهيب: «ليس سيدًا بالمعنى الذي تتصور. إنه من طبقتي قبل أن أتزوج من أبيك»، ثم أحاطته تدريجيًّا بكل شيء. فتصلبت ملامح الشاب برهة من الزمن، ثم احمر وجهه، ومال على المنضدة وانفجر باكيًا في لوعة.

فذهبت أمه إليه. وقبلت كل ما استطاعت أن تصل إليه من أجزاء وجهه. وربتت على ظهره، كأنه لا يزال طفلًا صغيرًا، ثم أخذت هي الأخرى تبكي، ولما استفاق شيئًا هُرع إلى حجرته الخاصة، وأوصد الباب دونها.

وحاولت التحدث إليه من خلال ثقب المفتاح. ووقفت هي خارج الحجرة تنتظر وتنصت. ومضى وقت طويل قبل أن يرد. ولما رد كان جوابه فظًّا بالغ القسوة، إذ قال وهو في داخل حجرته: «ما أشد خجلي لكِ!! إن زواجك هذا يحطمني ويقضي عليَّ! جاهلة، تعسة، حمقاء، ماجنة، إن هذا الزواج يفضحني ويحط من قدري في نظر كل سادة إنجلترا». فقالت وهي تبكي في بؤس: «كفى. ربما كنت مخطئة.. سأحاول ألا يتم شيء».

وقبل أن يغادرها راندولف هذا الصيف، وصل خطاب من سام يخبرها أنه نجح نجاحًا لم يكن منتظرًا في شراء الدكان، وهو أكبر متجر في المدينة للفاكهة والخضراوات. وأن هذا سيمكنه أن يهيئ لها بيتًا جديرًا بها يومًا ما. وسألها إن كان ميسورًا أن يلقاها إذا هرع إلى لندن.

قابلته سرًّا. وذكرت له أن عليه أن ينتظر مدة أخرى قبل أن يسمع جوابها الأخير. ومضى الخريف متثاقلًا. وعاد راندولف إلى المنزل في عطلة آخر السنة، فعادت إلى الموضوع مرة أخرى. ولكن الشاب كان في هذه المرة صلبًا لا يلين.

تُرك الموضوع أشهرًا، ثم فتح من جديد. ثم تُرك تفاديًا لثورته، ثم أُعيدت المحاولة مرة أخرى. وهكذا جعلت المرأة الوديعة تقنع وتتوسل حتى مرت أربعة أعوام أو خمسة. ثم أعاد سام، الرجل الأمين، طلب الزواج في كثير من الإلحاح. وكان ابن سوفي، وهو الآن طالب بالجامعة، قد أتى من أُكسفورد ليقضي عطلة عيد الفصح، فأعادت عرض المشروع، وحاولت أن تثبت له أنه حالما يصير قسيسًا فسيكون له منزل خاص به، وستكون أجروميتها الخاطئة وجهلها يؤذيانه، فخير له أن يقصيها عن حياته. وكان أكثر رجولة في غضبته مما كان في غضبته الأولى، ولكنه لم يوافق وكانت هي من جانبها أمعن إصرارًا من ذي قبل. فلم يعد يطمئن إليها إبان غيابه. على أنه ظل سادرًا في غضبه وازدرائه لذوقها، ممعنًا في جبروته واستعلائه. وأخذها آخر الأمر أمام صليب

ومذبح كان قد أعدهما في غرفة نومه، وأمرها أن تركع، وأن تقسم أنها لن تتزوج من (سام هوبزون) دون إذنه قائلًا: «هذا حق أبي عليَّ».

أقسمت المرأة المسكينة، وفي ظنها أن شعوره سيرق بمجرد أن تتم وسامته الكهنوتية وينشغل في عمله الكنسي. ولكنه لم يرقَّ، ولم يلن. فقد أجهز تعليمه على إنسانيته وقضى عليها، وجعله عنيدًا صارمًا متعجرفًا، مع أن أمه ربما كانت تتهيأ لها أسباب السعادة والنعيم، مع صاحبها الأمين تاجر الفاكهة والخضر، دون أن يحيق ضرر ما بأي إنسان في العالم.

وثقل عليها العرج بمضي الزمن، وصارت لا تغادر منزلها المطل على الطريق الجنوبي الطويل إلا في أندر الأوقات، إن كانت تغادره على الإطلاق. وفي هذا المنزل كان قلبها يتآكل رويدًا رويدًا، وكانت تهمهم لنفسها في أسف حين لا يكون بقربها أحد: «لماذا لا أقول لسام أني سأتزوجه؟ لماذا لا يتاح لي ذلك؟».

ومضت أربع سنوات على هذا التاريخ، وكان رجل في منتصف العمر يقف عند باب أكبر متجر للفاكهة في أولد بركهام، إنه صاحب هذا المتجر، ولكنه بدلًا من أن يرتدي ثياب العمل العادي، لبس اليوم سترة سوداء أنيقة، وأقفل بعض واجهة محله، وأقبل موكب جنازة من المحطة.. ومر الموكب بالمتجر، ثم غادر المدينة متخذًا سمته إلى قرية (جايميد). وكان الرجل يمسك قبعته في يده، والدموع تذرف من عينيه، والعربات أمامه. وكان في أولاها شابٌ قسيس حليق، يرتدي صدرة عالية، نظر إلى صاحب المتجر، فعلت وجهه كدرة.

* * *

## إراحة لضميره

**-1-**

سواء أكان الإنسان يعمل الخير ابتغاء المنفعة، أو استجابة للفطرة، فمما لا شك فيه أن بعض ذوي الحس المرهف، يفعلون الخير إذا كانوا مختارين اختيارًا مطلقًا، بينما يتلمسون المعاذير للتهرب إذا أحسوا بأنهم مضطرون إليه، محمولون عليه. وتصور قصة مستر ملبورن ومسز فرانكلاند هذه الحقيقة أصدق تصوير، وربما صورت إلى جانبها حقائق أخرى.

لم يكن أحد معروفًا لعابري الطريق من سكان الناحية أكثر من مستر ملبورن في غدواته وروحاته اليومية في شارع هادئ معروف من شوارع لندن، حيث كان يقيم في المنزل رقم (11)، وإن لم يكن صاحب أسرة. وكانت سنه خمسين على الأقل، وكانت عاداته مثال الانتظام، شأن مَن لا عمل لهم إلا البحث عما يشغلون به أنفسهم، فهو إذا بلغ نهاية الشارع انحرف إلى اليمين غالبًا، ثم مضى قدمًا في شارع (بوند) حتى يصل إلى النادي. وكان يعود منه في نفس الطريق تمامًا مشيًا على القدم حوالي الساعة السادسة. وإذا تناول عشاءه تأخر قليلًا وعاد في عربة. وكان معروفًا أنه رجل ذو مورد، وإن لم تبُد عليه أمارات الثراء. وكان عزبًا فآثر أن يحتفظ بنظامه الحالي. فيظل نزيلًا في أجمل حجرات (مسز توني)، يستعمل أثاثًا دفع ثمنه عشرات المرات، إبان مقامه بهذه الحجرات المؤثثة مؤثرًا ذلك على استئجار منزل خاص.

ولم يحاول أحد ممن يعرفونه أن يزيد به علمًا؛ لأن أخلاقه ومزاجه لا يثيران فضولًا، ولا يغريان بصداقة وثيقة. فهو لا يبدو صاحب همٍّ يضنيه أو سر يخفيه أو خبر يرويه.

وكان يفهم عادة من حديثه العابر أنه ريفي المولد، من أهالي مكان ما في (وسكس)، وأنه نزح إلى لندن في شبابه ليشتغل في مصرف، وتدرج فيه إلى مركز له خطر، ولما مات أبوه، وكان رجلًا موفقًا في استغلال أمواله، ورث الابن ثروةً شجعته على التعجيل بترك الخدمة.

وتوعكت صحته عدة أيام، وعاده بعد العشاء دكتور بندون، أحد أطباء المركز الصحي المجاور، وجعلا يدخنان إلى جانب المدفأة. فقد كان ألم المريض هينًا لا يشغل البال، فتطرق حديثهما إلى موضوعات قليلة الخطر، وانتهز ملبورن الفرصة، وهز رأسه قائلًا في اكتئاب:

- «أنا يا بندون رجل منطوٍ على نفسي، أعيش في عزلة تامة لا تعرف لها مثيلًا. وكلما تقدمت بي السن، زدت ضيقًا بنفسي. وقد حدث اليوم ما أثقل همي وأعاد إلى ذهني حادثًا يقضُّ مضجعي أكثر من كل ما مر بي في حياتي. ذلك الحادث هو أني أخلفت وعدًا قطعته على نفسي منذ عشرين سنة. وقد عُرف عني في معاملاتي أني رجل يحترم كلمته. ولعل هذا هو السبب في أن عهدًا قطعته على نفسي ثم أخلفته، يعاودني شبحًا.. قد لا تتناسب ضخامته مع حقيقة خطورته. يعاودني خاصة في مثل هذه الساعة من كل يوم. أتعرف ما ينتاب الإنسان من ضيق كلما أحس، وهو بين النوم

واليقظة، أن بابًا أو شباكًا قد تُرك مفتوحًا. أو كلما تذكر في النهار أنه لم يجب على ما جاءه من خطابات؟ هكذا يعاودني هذا الوعد، ويوسوس في صدري من وقت إلى وقت، وخاصة اليوم.

ساد الصمت، وأخذا يدخنان. وكانت عينا ملبورن شاخصتين إلى النار، بينما ترنوان في الواقع إلى بلدة في غرب إنجلترا.

وتابع حديثه قائلًا: «نعم، لم أنسَ هذا الوعد قط، وإن كان قد تنحى عن طريقي، واختفى في زحمة المشاغل، طوال سني العمل المتواصل. وكما قلت، حدث اليوم بالذات أن قرأت في النشرة القانونية عن حادث من نفس النوع، فأثار الذكرى في خاطري. ومع ذلك، فسأخبرك في إيجاز بما كان من هذا الأمر. وأن كنت ولا شك -وأنت الخبير بالحياة- ستبسم لفرط حساسيتي حين تسمعه: أتيت إلى لندن في سن الحادية والعشرين من (تونبرو) في وسكس مسقط رأسي. وقبل أن أغادرها قنصت قلب شابة في مثل سني، ووعدتها بالزواج، وتقاضيت ثمن هذا الوعد. وهأنذا ما زلت عزبًا؟».

- «القصة القديمة».

فأومأ بالإيجاب.

«تركت المدينة. وظننت وقتئذٍ أني أتيت عملًا رائعًا، فقد أفلت في سهولة من موقف معقد. على أن الحياة قد امتدت بي، حتى عاودتني ذكرى هذا الوعد تؤرقني وتزعجني. وفي الحق أنها لا تعاودني مطلقًا في صورة وخز الضمير، بل في صورة السخط على نفسي، بوصفي نموذجًا لكتلة الأحياء، التي تُدعى (بني الإنسان). إني إذا طلبت إليك أن تقرضني خمسين جنيهًا على أن أردها في منتصف الصيف القادم، ثم لم أفعل، صرت في عداد غير الشرفاء، ولا سيما إذا كنت في حاجة قصوى إلى هذا المبلغ، ولكني وعدت هذه السيدة بالزواج بنفس هذا الوضوح، ثم أخلفت الوعد بمنتهى البرود. وكأنَّ هذا تصرف لبق، لا عمل دنيء. وترتب على ذلك أن عُوِّقت المسكينة بطفلة، ولم أُعوَّق أنا، فدفعتْ وحدها الثمن، إذا استثنينا تعويضًا ماليًّا دُفع لها. هذه هي الذكرى الأليمة التي أذكرها دائمًا، ولعلك لا تصدق أني رغم مرور سنوات كثيرة وانقضاء كل شيء. إذ لا بد أنها الآن امرأة عجوز كما أني رجل مسن، فإن هذه الذكرى لا تزال تحطم في نفسي عاطفة الاعتزاز بالكرامة».

- «لقد فهمت. إن كل شيء يعتمد على المزاج. فآلاف من الناس ينسون كل شيء لو كانوا في مكانك. ولعلك كنت تنساه أيضًا، لو أنك تزوجت وكونت لك أسرة.

هل تزوجت هي بعد ذلك؟».

- «لا أظن. كلا إنها لم تتزوج قط. لقد هجرت (تونبرو)، ثم ظهرت بعد ذلك باسم مستعار في (أكسنبري) في المقاطعة المجاورة، حتى لا يعرفها أحد، وأنا قلما أذهب إلى هذه الجهة. ولكني في

أثناء مروري بهذه البلدة ذات مرة، علمت أنها من أهل البلدة المقيمين. وأنها تشتغل مدرسة للموسيقى.. أو شيئًا من هذا القبيل..

سمعت ذلك عرضًا حين كنت هناك منذ عامين أو ثلاثة. غير أني لم أرها قط منذ معرفتنا الأولى، وربما لا أعرفها إذا رأيتها».

فسأله الطبيب «وهل عاشت الطفلة؟».

فأجابه صاحبه: «مؤكد أنها عاشت عدة سنين. ولكن لا أدري أهي لا تزال على قيد الحياة أم لا. كانت بنتًا صغيرة.. ولعلها الآن متزوجة إذا حسبنا السنين».

- «والأم، هل كانت شابة مهذبة فاضلة؟».

- «نعم كانت فتاة عاقلة هادئة.. لا تستهوي الناظر العادي ولا تنفره.. شكلها عادي.. وكان مركزها حينما تعارفنا يقل عن مركزي. كان أبي محاميًا كما أظن أني أخبرتك، وكانت هي صبية تعمل في محل موسيقى. واستقر رأي أسرتي على أن زواجي منها لا يليق.. ثم وصلنا إلى هذه النتيجة».

- حسنًا.. ولكن كل ما أستطيع قوله، أنه بعد انقضاء عشرين عامًا يكون وقت إصلاح مثل هذه المسائل قد فات.

فلا بد أن الزمن أصلحها. وخير لك أن تطرد هذه الخواطر من ذهنك، وأن تعتبر ما حدث شرًّا لا سلطان لك عليه.

طبعًا إذا كانت الأم والابنة -كلتاهما أو إحداهما- على قيد الحياة ففي إمكانك أن تخصص لهما بعض مالك، إذا أردت، وكان لديك فضل من مال».

- «ليس لديَّ كثير من المال يزيد عن حاجتي.. ولي أقارب في ظروف ضنك، ربما فاقت ظروفهما سوءًا. ولكن هذا ليس بيت القصيد، فلو أني كنت غنيًّا، لما شعرت أني أستطيع إصلاح الماضي بالمال. لم أعد بإثرائها، بل لقد أخبرتها أن زواجنا سيجر علينا -في أغلب الظن- فقرًا مدقعًا، ولكني وعدتها بالزواج».

فأجاب الطبيب مازحًا وهو يهم بالانصراف: «إذن. ابحث عنها وتزوجها».

- «آه يا بندون.. هذه هي الدعابة المألوفة في مثل هذه الحالة. ولكني راغب عن الزواج تمامًا.. وأنا قانع كل القناعة بأن أحيا كما حييت.. فأنا عزب بالطبع والغريزة والعادة.. هذا إلى أني لا أشعر نحوها بظل من الحب، وإن كنت ما زلت أحترمها وأراها بريئة من كل شائبة. فهي في رأيي

امرأة لا تُسيء بها الظن، ولكنها لا تشوقك. وإنما يدفعني إلى البحث عنها رغبة خالصة في إصلاح الخطأ.. ورأيي أن أعقد عليها دون احتفال».

فقال صديقه في دهشة: «لعلك لا تفكر في هذا جادًّا».

- «إني أحيانًا أفكر في إنجازه إذا أمكن.. كيما أستعيد -كما صارحتك- شعوري بأني رجل شريف».

فقال الدكتور بندون: «أتمنى لك التوفيق في مشروعاتك. ستبرأ من مرضك وتغادر هذا الكرسي عما قليل. وتستطيع حينئذ أن تختبر هذا الخاطر الفجائي. ولكن بعد عشرين عامًا من الصمت، أنصحك ألا تُقدم».

* * *

ظلت نصيحة الطبيب تتأرجح في ذهن ملبورن، إزاء روح جاد مستمسك بالمبدأ، كاد يبلغ من نفسه مبلغ العقيدة الدينية، وظل يختلج في صدره طيلة أشهر..

وربما سنوات.

ولم يكن لهذا الشعور مع ذلك أثر مباشر في تصرفات مستر ملبورن.. فسرعان ما شُفي من مرضه اليسير، وأنَّب نفسه على انزلاقها إلى إفشاء سر من أسرار الضمير لإنسان مهما كان. ورغم أن القوة التي دفعته إلى ذلك الإفشاء ظلت كامنة، فإن جذوتها لم تَخْبُ، بل لقد قويت واستعرت في النهاية. فما كادت تمضي أربعة أشهر على المرض وإفشاء السر، حتى وجد مستر ملبورن نفسه ذات صباح ربعي معتدل، في محطة (بادنجتون) وقد استقل القطار الذاهب إلى الغرب. ذلك أن أفكاره الكثيرة التي جعلت تعاوده من وقت إلى وقت عن الوعد الذي أخلف، والذي كان يجبهه وجهًا لوجه في وحدته، قد حددت سلوكه آخر الأمر.

لقد حفزه إلى هذا المسلك الحاسم، أنه علم وهو يتصفح دليل البريد منذ يوم أو يومين، أن المرأة التي لم يقابلها طيلة عشرين عامًا لا تزال تعيش في (أكسنبري) منتحلة هذا الاسم الذي اتخذته منذ عودتها من الخارج، بعد عام أو عامين، من اختفائها هو وابنتها من بلدتهما، حين تظاهرت بأنها شابة أرملة لها طفلة. وعلم أنها تقيم في مسكن خاص بالمدينة المذكورة، وأن حالتها -على ما يبدو- لم تتغير إلا قليلًا. وأن ابنتها تقيم معها؛ لأن اسميهما في الدليل (مسز ليونورا فرانكلاندومس فرانكلاند.. مدرستا الموسيقى والرقص).

وصل مستر ملبورن إلى (أكسنبري) بعد الظهر. وكانت مهمته الأولى قبل أن ينقل متاعه إلى داخل المدينة، أن يبحث عن المنزل الذي تسكنه المدرستان.

وكان العثور عليه يسيرًا، فقد كان قائمًا في ساحة مكشوفة وسط المدينة، وكان على بابه لافتة من النحاس المصقول تحمل اسميهما واضحًا.. وقد تردد في الدخول قبل أن يقف على معلومات جديدة. وأخيرًا نزل في مسكن فوق دكان لعب مقابل لمنزل المدرستين، واحتفظ لنفسه بحجرة استقبال تواجه حجرة استقبال مماثلة في منزلهما، كانت تُعطى فيها دروس الرقص. ولما استقر به المقام استطاع بطريقة لبقة كيسة لا تثير شكًّا أن يتحرى.. وأن يلاحظ أخلاق السيدتين المقيمتين في الجانب الآخر من الشارع.. وقد تحرى ولاحظ في كثير من التؤدة والروية.

فعلم أن الأرملة، مسز فرانكلاند التي تقيم معها ابنتها الوحيدة فرانسيز، تحظى بسمعة طيبة تثلج الصدر، فهي نشيطة دائبة في تعليم تلاميذها الكثيرين، وابنتها تعاونها في ذلك.. هذا إلى أنها صارت من أهل المدينة البارزين. وإذا كان الرقص عملًا تافهًا من الوجهة الاجتماعية، فإن الأرملة -في الواقع- كانت سيدة جادة العقل.. اضطرتها الظروف إلى كسب عيشها بتعليم ما تعلم.

فجعلت تكفر عن هذا بالمساهمة في أسواق الخير، والمشاركة في الحفلات المقدسة، وعزف قطع موسيقية ابتغاء جمع المال للمخلوقات الشريدة الضالة.. وغير ذلك من المشروعات الخيرية التي يتحمس لها هذا البلد المستنير.

وكانت الابنة من العضوات البارزات في جماعة الشابات اللائي يزين الكنائس في عيد الفصح وعيد الميلاد، فكانت تعزف على الأرغن في إحدى الكنائس. وقد ساهمت في شراء إناء العشاء الفضي الذي قُدم هدية للأسقف مستر (ووكر)؛ عرفانًا بفضل جهده الصادق في ترتيلاته، طيلة ستة أشهر قضاها مساعدًا للمرتل الرسمي في الكاتدرائية. ويبدو جليًّا أن الأم والابنة، امرأتان نموذجيتان حسنتا السيرة، بين القوم الوادعين في أكسنبري.

وكانتا تتركان نوافذ حجرة الموسيقى مفتوحة شيئًا ما، وهذه وسيلة طبيعية بسيطة من وسائل الإعلان. وهكذا كنت تستطيع في أثناء سيرك على طول الطريق، في أي ساعة بين الشروق والغروب، أن تسمع مقتطفات نادرة من الموسيقى الكلاسية، يؤديها الصغار في سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة على قدر سنهم. ولكن معظم إيراد مسز فرانكلاند يأتي -على ما يقال- من تأجيرها لآلات (البيانة)، وبيعها بوصفها وسيطة للصانعين.

أقرت هذه المعلومة عين مستر ملبورن.. فهي تضفي عليهما شرفًا بالغًا، فاق كثيرًا ما كان يرجو، فشغف بأن يرى المرأتين اللتين تعيشان هذه المعيشة الطاهرة.

ولم يمضِ وقت طويل حتى لمح (ليونورا) غداة وصوله واقفة على مرقاة بابها، تفتح المظلة.. نحيلة غير شاحبة، ذات شعر آخذ في المشيب. ورأى وجهها حسن الطلعة رزينًا قد أخذ مكان ذلك الوجه الذي استهواه فترة ما أيام الشباب.. بدت في مسوح سوداء تلائم شخصيتها كأرملة. ثم ظهرت الابنة بعدئذ، صورة غضة مستديرة من أمها، وترتسم في ملامحها سمات العزم والتصميم التي تبدو ليونورا. وكانت تثب في خطوها وثبات أشبه بوثباته أيام كان في سنها.

فعقد عزمه نهائيًّا على زيارتهما للمرة الأولى. ولكنه رأى أن يمهد لهذه الخطوة، فأرسل خطابًا إلى ليونورا في الصباح التالي، يعرب فيه عن رغبته في زيارتها، ويقترح المساء موعدًا لذلك؛ لأن عملها يستغرق النهار بطوله. وصاغ خطابه بحيث لا يحتاج إلى رد، فقد يحرجها أن تكتبه.

لم يأتِ رد.. ولم يكن بطبيعة الحال أن يدهش، غير أنه اشتم في ذلك رائحة الزجر.. لأنها لم تتبرع برد لم يطلبه إليها.

عبر الشارع في الساعة الثامنة، وهي الساعة التي حددها هو لزيارتها، فأدخلته الخادمة دون ما ترحيب. وقابلته مسز فرانكلاند -وهو الاسم الذي صار يطلق على السيدة- في حجرة الموسيقى والرقص الواسعة في مقدمة الدور الأول، لا في حجرة استقبال صغيرة خاصة كما توقع. فأسدل

هذا التصرف على مقابلتهما الأولى، بعد هذه السنوات الطويلة من الفراق، ظلًّا قاتمًا لا تومض خلاله عاطفة.

وقفت المرأة المجني عليها، في زي رائع استلفت نظره، وهو الذي رأى أجمل أزياء لندن، وبدا عليها وهي مقبلة وقار يغشاه شيء من العبوس، فلا ريب أنها لم تطرب للقائه.. وماذا عساه ينتظر بعد إهمال عشرين عامًا؟ قالت في تلطف كما تقول لأي زائر عابر: «كيف أنت يا مستر ملبورن؟ أنا مضطرة أن أستقبلك هنا؛ لأن ابنتي معها صديق في الدور الأرضي».

- «ابنتكِ.. وابنتي أيضًا».

فأجابت في سرعة كأنه ذكرها بما نسيت: «آه.. نعم.. نعم.. ولكن كلما قل كلامك عن هذا كان خيرًا.. لصالحي.. أرجوك أن تعاملني على أني أرملة».

«بالتأكيد يا ليونورا»، ولم يستطع أن يسترسل في الحديث؛ لأن أسلوبها كان باردًا غاية البرود، خاليًا من كل أثر للاهتمام، بعيدًا كل البعد عما كان يتوقع، من مشاهد العتاب الحزين، الذي رق وعذب بمضي الزمن. فمضى إلى هدفه دون تمهيد.

- «هل أنتِ غير مرتبطة يا ليونورا؟ أعني في مسألة الزواج؛ هل أنت مخطوبة أو..».

فقالت في شيء من الدهشة: «كلا لست مرتبطة مطلقًا يا ملبورن».

- «إذَنْ سأخبركِ لماذا جئت. منذ عشرين عامًا وعدتكِ بالزواج، وهأنذا قد أتيت لأبر هذا الوعد.. وعفا الله عما سلف».

فزادت دهشتها وإن لم تتحرك مشاعرها، وبدت عليها الكآبة والاستهجان. وقالت بعد برهة أو برهتين: «أظن أني لا أستطيع قبول مثل هذه الفكرة، وأنا في هذه السن، إنها تحدث ارتباكًا بالغًا في حياتي. فلي دخل مالي لا بأس به، ولا حاجة بي إلى مساعدة من أحد، ولا رغبة لي في الزواج. ماذا أغراك بالإقدام على أمر كهذا؟

إنه لعجيب حقًّا، إذا كان لي أن أقول ذلك».

فأجاب ملبورن في غير وضوح: «لا ريب أنه كذلك فيما أظن»، ثم أردف ذلك بقوله: «يجب أن أذكر لكِ أن هذه الرغبة لا يكاد يدفعني إليها الحب. فأنا أريد أن أتزوجكِ يا ليونورا، بل أرغب في ذلك رغبة شديدة؛ لأنها مسألة ضمير، مسألة وفاء بالعهد، لقد وعدتكِ بالزواج، وكان عارًا عليَّ أن أتخلى عنكِ وأختفي، فأنا أريد أن أزيل عن نفسي ذلك الإحساس بالعار قبل أن أموت.. ولا شك أننا قد نجدد عهد الحب حارًّا كما كان في السنوات الخالية».

فهزت رأسها في ارتياب: «إني أقدر النوازع التي تجيش في صدرك يا مستر ملبورن. ولكن يجب أن تقدر أنت أيضًا موقفي. فإن فعلت أدركت أني شخصيًّا زاهدة في الزواج.. ومن ثم فلا أرى مبررًا لأن حالتي الراهنة.. ولا في سبيل إراحة ضميرك.. إن لي في هذه المدينة مركزًا محترمًا بلغته بما بذلت من جهود مضنية.. ولا أطيل عليك فما من شيء يحملني على تغيير مركزي.. وابنتي توشك أن يخطبها شاب سيكون لها زوجًا ممتازًا، شاب يلائمها من كل الوجوه، هو الآن معها في الدور الأرضي».

- «وهل هي تعلم.. شيئًا عني؟».

- «أوه.. لا... لا قدر الله.. فأبوها في اعتقادها قد مات وواراه التراب.. وهكذا تسير الأمور رخاء.. ولا أريد أن يضطرب سيرها».

فأومأ بالإيجاب وقال «حسنًا»، ونهض لينصرف، وما إن بلغ الباب، حتى عاد أدراجه وقال في إلحاح: «على أي حال لقد جئت يا ليونورا أقصد غرضًا معينًا.. ولا أرى أنه يحدث اضطرابًا.. فأنتِ إنما تتزوجين صديقًا قديمًا.. أفلا تتدبرين الأمر من جديد؟ إننا لا نعدو الصواب إذا تزوجنا ولو من أجل ابنتنا».

فهزت رأسها وجعلت تنقر الأرض بقدمها في عصبية. فقال ملبورن «إذَنْ فلا داعي لتعطيلكِ. سأبقى في أكسنبري. فهل يؤذن لي بزيارة أخرى؟».

«نعم.. لا مانع»، كذلك كان جوابها في ضجر وتبرم.

وإذا كانت هذه العوائق التي صادفته لم توقظ حبه لليونورا، فهي لا مراء قد حفزته -كيما يستعيد طمأنينة نفسه- إلى مغالبة البرود الذي بدا منها ما وسعه ذلك.

فألحف في الزيارة. وفي أول مرة لقي ابنته أحس بضيق شديد، وإن لم يشعر بشيء يجذبه إليها كما كان يقدر، فهي لم تستثر عطفه.

وأسرت الأم لفرانسيز بغرض صديقها القديم، فنظرت إلى هذا الغرض بعين المقت الشديد. واجتمعت كلمة الأم والابنة على رفضه. وظل ملبورن وقتًا طويلًا لا يستطيع أن يؤثر في مسز فرانكلاند أقل تأثير. فكانت تضيق بمجاملاته، بدلًا من أن تطرب لها. وكان يدهش لعنادها وإصرارها، وكانت لا تتأثر قط بما يسوقه تبريرًا لزواجهما.. إلا إذا ضرب على وتر الأخلاق كأن يقول لها: «الحق أنه ينبغي علينا كشخصين شريفين أن نتزوج.. هذا هو الحق يا ليونورا».

فتجيبه في سرعة: «لقد فكرت في الموضوع على هذا الضوء.. وتأثرت أول الأمر، ولكني لم ألبث أن وجدت أن حجتك ضعيفة واهية. فأنا أنكر بتاتًا أني ملزمة بعد هذه المدة الطويلة أن أتزوجك من

أجل الشرف: لو أتى هذا العرض في وقته المناسب لقبلته، كما تعلم جيدًا. ولكن ما فائدة العلاج الآن؟».

وكانا واقفين عند النافذة، فأقبل نحو الباب شاب ذو شارب صغير، يرتدي ثيابًا كنسية، فاحمر وجه ليونورا سرورًا. فسألها ملبورن:

- «مَن هذا؟».

- «إنه حبيب فرانسيز، يؤسفني أنها ليست في المنزل.. آه لقد أخبروه عن مكانها، فذهب ليراها.. ليتها تُوَفَّق إلى الزواج منه».

- «ولِمَ لا؟».

- «إنه لا يستطيع حتى الآن أن يتزوج. ومنذ أن غادرا أكسنبري صارت فرانسيز لا تراه إلا غرارًا. كان يعمل هنا أول الأمر، ولكنه الآن قسيس في كنيسة (سانت جونز) في إيفل، على مسافة خمسين ميلًا من هنا. وهما متفاهمان، دون ما تصريح. ولكن بعض أصدقائه يعترضون على زواجه منها نظرًا للمهنة التي نحترف، وإن كان يدرك سخافة هذا الاعتراض ولا يأبه له».

- «إن زواجنا يساعد على تحقيق أملهما في الزواج، ولا يعوقه كما زعمت».

- «أتظنه يساعد؟».

- «بكل تأكيد؛ لأنه سيعفيك من هذا العمل نهائيًّا».

وهكذا هدته الصدفة إلى الطريق الوحيد للتأثير عليها. فتابع السير في هذه السبيل. وعرضت مسز فرانكلاند هذا الرأي على ابنتها، فوهنت معارضتها. وجعل ملبورن بعد أن ترك مسكنه في أكسنبري يسافر بين هذه المدينة وبين لندن ذهابًا وجيئة بانتظام حتى تغلب على ممانعتها.. ووافقت على كرهٍ منها.. وتزوجا في أقرب كنيسة. وبيع امتياز الاتجار بأدوات الموسيقى والرقص إلى شخص آخر، وكان يتوفز للحصول عليه، وقررت أسرة ملبورن أن تقيم في لندن.

* * *

صار ملبورن رب أسرة في حيه القديم، وإن لم يكن في شارعه القديم. وغدت مسز ملبورن وابنتها من أهل لندن، ورضيت الابنة الانتقال إلى هذه المدينة؛ لأن الفكرة أعجبت حبيبها. فقد كان أيسر عليه أن يسافر من إيفل مسافة مائة ميل ليراها في لندن حيث لا تفرغ شواغله، من أن يسافر خمسين ميلًا في الاتجاه المضاد حيث لا يحتاجه شيء غيرها.

ها هم أولاء يؤثثون المنزل تأثيثًا كاملًا، وهو في شارع صغير شهير في الحي الغربي. وكانت واجهة هذا المنزل إلى عهد قريب في لون السناج. ولكن هذا اللون أُزيل وتبدى من تحته، فأدهش السابلة، آجر لامع أصفر وأحمر، كان قد حجبه السناج طيلة نصف قرن.

ورفع الزواج مركز هاتين المرأتين الاجتماعي رفعًا بينًا. ولكن بعد أن مرت النشوة التي يستشعرها المنتقل إلى لندن في أيامه الأولى، وبعد أن خبا شعورهما بأنهما يقيمان في (مركز الكون ومحور الوجود)، بدأ شيء من الملل يرين على حياتهما، ملل لم تكونا تحسانه في أكسنبري الحقيرة، التي كانت تعرفان ثلاثة أرباع سكانها، معرفة طفيفة على الأقل، لم ينتقد ملبورن زوجتَهُ. وما كان له بذلك قِبَلٌ. ومهما يكن من صلابتها وحدتها نتيجة لسوء معاملته لها أول الأمر، وإهماله إياها سنين طويلة، فإن إحساسه بتحقيق ما كان يصبو إليه، من استعادة رضاه عن نفسه، كان دائمًا شيئًا له في نفسه وزن، يرجح كل ما عسى أن يضايقه منها.

وبعد حوالي شهر من إقامتهم في لندن، رأت الأسرة أن تقضي أسبوعًا في مصيف على شاطئ البحر بجزيرة (وايت). وفي أثناء مقامهم في هذا المصيف، زارهم برسيفال كوب، وهو الشاب القسيس الذي ألمعنا إليه، ليراهم، وليرى فرانسيز خاصة. ولم تكن خطبتهما حتى ذلك الوقت قد أعلنت رسميًّا، غير أنه كان من الواضح أن التفاهم بينهما إذا انتهى إلى غير الزواج، أصاب أحدهما، على الأقل، بصدمة بالغة من خيبة الأمل.

ولم تكن فرانسيز فتاة عاطفية، بل لعلها أميل إلى التجبر والغطرسة. وقد خيبت ما عقده والدها عليها من رجاء. ومع ذلك فقد كان يرجو لها كل خير. ويعمل ما فيه صالحها، كما يفعل أخلص الآباء.

قدم مستر كوب إلى رئيس الأسرة الجديد، ولبث معهم في الجزيرة يومين أو ثلاثة. وفي آخر أيام زيارته رأوا أن يتنزهوا ساعتين في أحد القوارب التي ترسو هناك في انتظار المستأجرين. وما إن قطعوا من الرحلة شوطًا، حتى تبينوا جميعًا -عدا القسيس- أن النزهة في أثناء هبوب الرياح لا تلائمهم تمام الملاءمة، ولكن ما بدا من استمتاع القسيس بالنزهة جعل الثلاثة الآخرين يتحاملون على أنفسهم ما وسعهم التحامل، دون ما تبرم أو شكوى، إلى أن أدرك الشاب ضيقهم وقلقهم، وأشار بالعودة فورًا إلى الشاطئ، وفي عودتهم جلسوا صامتين متقابلين.

ومرض البحر في مثل هذه الحالة يؤثر في الوجه تأثيرًا واضحًا، كما يؤثر فيه التأمل في منتصف الليل، والإعياء والتعب والخوف. وكثيرًا ما يبرز مرض البحر سمات الفرد التي تميزه من بني جنسه، ويظهر الخصائص العرضية، فتتكشف في الوجوه التي نعرفها جيدًا، ملامح لا عهد لنا بها. تتبدى فيها ظلال من أجدادنا، الذين طمرهم الثرى، وطواهم النسيان، فتلح على العين في إصرار، تلك السمات العائلية، التي تحجبها في الأحوال العادية ملامحنا ومظاهرنا المكتسبة.

كانت فرانسيز جالسة إلى جانب زوج أمها، وأمامهما مستر كوب، فكان من الطبيعي أن يطيل مستر كوب النظر إليها في أثناء العودة الشاقة إلى الشاطئ، وكان يبتسم لها في حنوٍ أول الأمر. ولكن لما ابيض وجه الرجل النصف وابيض وجه ابنته، وتفرقت حمرة وجهها فغدت بقعة حمراء صغيرة، وتحولت استدارة ملامحها الغضة عن استوائها المألوف الهادئ وصارت خطوطًا أصيلة، أخذت الدهشة تتولاه تدريجيًّا، وهو يستبين هذا التشابه بين اثنين في حالة الإعياء، ليس بينهما أي شبه في حالة الراحة. هذا التشابه العجيب أفزعه، واستحوذ على ذهنه، ولم يستطع له تأويلًا، فحار في أمره، وفاته أن يبتسم لفرانسيز، وأن يمسك يدها حينما بلغا الشاطئ، ولبث جالسًا بضع لحظات في ذهول.

وما لبثت بشرتاهما أن استعادتا لونهما المألوف وهما في طريقهما إلى المنزل، كما عادت إليهما استدارة وجهيهما، واختفت وجوه الشبه واحدًا في إثر واحد، وعاد الخلاف المألوف بين الجنسين والسنين. فكأنما قد رُفع في أثناء الرحلة قناع سحري، فتبدت برهة من الزمن قصة من قصص الماضي.

فقال لها عرضًا في المساء: «هل زوج أمك من أبناء عمها يا عزيزتي فرانسيز؟».

- «كلا. لا قرابة بينهما، إنما هو صديق قديم لها. كيف خطر لك ذلك؟».

لم يجب، وسافر في الصباح عائدًا إلى أعماله في (إيفل).

وكان (كوب) شابًّا طيبًا مستقيمًا، وكان مع ذلك ذكيًّا أريبًا، فما إن عاد إلى حجراته الهادئة في شارع (سانت بيتر) بإيفل، حتى أخذ يقلب في ذهنه، والقلق يساوره، هذا الذي تبدى له في أثناء الرحلة. فإذا القصة تتكشف له على حقيقتها، وإذا به يشعر لأول مرة أنه في موقف لا يطمئن إليه.

فهو قد قابل السيدة وابنتها في أكسنبري بوصفهما من سكان الأبرشية، واستهواه جمال فرانسيز، ومضى بعيدًا في طريق خطبتها، وإن لم يتخذ في شأنها قرارًا حاسمًا؛ لأنه لا يستطيع الزواج في هذه المرحلة من حياته. أما الآن فهو يرى أن ماضي الأسرة تكتنفه الأسرار، وليس من رأيه أن يتزوج من أسرة يكتنفها سر من هذا الطراز الذي أظنه.. وهكذا ظل حائرًا.. بين حرصه على (فرانسيز)، وكراهته الطبيعية لمصاهرة أسرة لا يحتمل ماضيها أدق بحث واستقصاء.

لو أنه كان عاشقًا مستهامًا من الطراز القديم، لما أقام لهذه الشكوك وزنًا. ولكنه رغم اشتغاله في الكنيسة، كان شديد التأنق في حبه، متوجسًا إلى حد ظاهر من عوامل الانحلال السائدة في عصره. فتأخر في الكتابة إلى فرانسيز فترة من الزمن؛ لأنه لا يستطيع أن يصطنع الحماسة، حين تشغله وساوس من هذا النوع.

وفي غضون ذلك كانت أسرة ملبورن قد عادت إلى لندن، وأخذ القلق يساور (فرانسيز).

وفي حديث لها مع أمها عن مستر كوب، أشارت في براءة إلى سؤاله العجيب: هل أمها وزوج أمها من أولاد الأعمام؟. فطلبت إليها مسز ملبورن أن تكرر هذه العبارة، ففعلت. ثم تداعت في ذهنها النافذ، شواهد كثيرة، جمعت بعضها إلى بعض.. فاحمر وجهها وسألت أمها إذا كان ما فهمته حقًّا، فاعترفت الأم بأنه الحق.

وبدت في وجه الفتاة حمرة الذل بعد حمرة الخجل: كيف يعقل أن قسيسًا مستقيمًا، نافذ النظر مثل مستر (كوب)، يطلب يدها بعد أن كشف سر مولدها؟

ووضعت كفيها على عينيها في يأس صامت.

ولما حضر مستر ملبورن كظمت المرأتان غيظهما أول الأمر، ثم لم يلبث شعورهما المكبوت أن تغلب عليهما تدريجيًّا. فلما نام في كرسيه بعد العشاء، انفجر غضب مسز ملبورن، وظاهرتها فرانسيز الجريحة في تعنيف الرجل النحس، الذي ألقى ظله اللعين على يوم العرس، فأحاله مأتمًا.

- «لماذا ضعفتِ إلى هذا الحد يا أماه، حتى سمحت لعدوكِ وأصل بلائك، أن يدخل بيتكِ، فضلًا عن أن يتزوجكِ، بعد هذا الزمن الطويل؟ لو أنكِ استشرتني لاستطعت أن أقدم رأيًا خيرًا من هذا. لكن لا أظن أن لي حقًّا في تعنيفه، مهما بلغ شعوري نحوه من مرارة وحقد، وإن كان قد حطم حياتي إلى الأبد».

- «لقد ثبت على موقف الرفض يا فرانسيز. ورأيت من الخطأ أن أقول شيئًا لرجل كان أشبه بلعنة القدر صُبت عليَّ. ولكنه لم يستمع. وجعل يضرب على وتر ضميره وضميري، حتى ضجرت وقبلت، وهكذا خرجنا من بلدة هادئة كنا فيها معروفين محترمين. كم أخطأت التقدير! وا أسفاه على سعادة تلك الأيام.. كان لنا كثير من الأصدقاء في مثل مركزنا، لا يطلبون منا أكثر مما نطلب منهم. أما هنا، حيث ملايين البشر فلا نعرف أحدًا، ولا علاقة لنا بأحد. قال لنا إن مجتمع لندن رائع باهر..

وإننا سنشعر أننا انتقلنا إلى عالم جديد. ربما أحس ذلك من نشأ في هذا المجتمع.. أما نحن فما لنا وله، وإننا امرأتان وحيدتان، نرى بهرج المدينة يمرق من أمامنا ولا صلة لنا به.. آه.. لشد ما كنت بلهاء».

لم يكن ملبورن حينذاك مستغرقًا في النوم، بحيث لا يسمع هذه النقدات التي كادت تبلغ حد اللعن والسباب. فلم يشعر بالأمن والهدوء في المنزل، وعاود التردد على النادي بعد أن كاد ينقطع عنه نهائيًّا منذ عودته إلى ليونورا. ولكن أشباح متاعبه المنزلية لاحقته هناك أيضًا، وأفسدت عليه راحته.

فلم يستطع -كما كان يفعل- أن يطمئن في كرسيه المختار، وأن يمسك بجريدة المساء، يتصفحها في راحة العزب، الذي يحس أنه حيثما ذهب، انتقل عالمه معه. إن دنياه الآن لم تعد كرية مركزها هو، بل بيضاوية لها مركزان، ليس هو أعظمها أهمية.

ظل أسقف إيفل متباعدًا، مخيبًا بهذا التباعد آمال فرانسيز، فهو لا يريد أن يستبق الحوادث. وقد احتمل ملبورن تعنيف زوجته وابنته في سكون يكاد يكون تامًّا.

غير أن الهموم والمتاعب أخذت تشتمل عليه تدريجيًّا، وكأنما يتمخض ذهنه عن فكرة جديدة. فإن صيحتهما المريرة أنه حطمهما قد نفذت إلى نفسه وألهبتها، فاقترح ذات يوم في هدوء أن يعود إلى الريف.. لا إلى أكسنبري بالذات، بل إذا -شاءتا- إلى دار عمدة قديمة، وحدها معروضة للإيجار، على بعد ميل واحد من (إيفل)، بلدة مستر كوب.

فأصابتهما دهشة. ورغم أنهما تريانه مصدر شقوتهما وتعاستهما، فقد كانتا مهيأتين لقبول هذا الاقتراح. قالت مسز ملبورن: «ولو أني أخشى أن ينتهي الأمر بسؤال صريح عن الماضي يجابهكِ به مستر كوب، فتضطر إلى إخباره، ويتحطم كل ما أعلقه على فرانسيز من آمال. إنها تزيد كل يوم شبهًا بك، وعلى الأخص حين تكون غاضبة.. وسيراكما الناس معًا ويلحظون الشبه.. ولا أدري ماذا يترتب على ذلك».

«لا أظنهم سيروننا معًا»، كذلك كان جوابه. ولم يدخل معها في جدل حين أصرت على أن هذا مستحيل.

وعلى ذلك قرروا الانتقال إلى المنزل الريفي، وإخلاء منزلهم في لندن. وبدأت عملية الإخلاء يقوم بها النجارون والحوذيون، حتى نقلت كل قطع الأثاث كما نقل الخدم. وفي أثناء ذلك أرسل زوجته وابنته إلى الفندق، وذهب هو مرتين أو ثلاثًا إلى إيفل، ليشرف على إعداد المنزل الجديد وتأثيثه، ولما فرغ من ذلك عاد إليهما في لندن، وأخبرهما أن المنزل قد أُعد لاستقبالهما، وما عليهما إلا السفر. ورافقهما ومتاعهما الخاص إلى المحطة، ولم يزد، إذ كان عليه -كما قال- أن يلبث قليلًا في المدينة لينجز عملًا مع أحد المحامين.. وذهبتا وحدهما، تغشاهما ريبة وحسرة؛ لأن كوب الحبيب العزيز لم يبد له أثر.

قالت مسز ملبورن لابنتها في القطار: «ليتنا نعيش هنا وحدنا، لا يتطفل أحد علينا فيثير القيل والقال! ولكن ما الحيلة؟».

كان المنزل بديع المنظر، صغير الحجم، يقع في أيكة من الدردار، فراقهما منظره وموقعه. وكان أول زائر لهما هو المستر (كوب) وقد سر لإقامتهما على مقربة منه، وإن لم يصرح بذلك. وتمنى لو عاش على هذا الغرار الرائع. على أنه لم يستعد روح العاشق المدله، فأسرت مسز ملبورن إلى ابنتها: «يا عجبا! إن أباكِ قد أفسد كل شيء».

ولكن لم تمض ثلاثة أيام، حتى جاءها خطابٌ من زوجها أدهشها كل الدهشة. فهو مرسل من بولونيا، ويبدأ بشرح طويل للأمر الذي شغله منذ برحنا لندن، وهو تسوية أيلولة ثروته. وأهم ما يعنينا في ذلك أن مسز ملبورن وجدت نفسها مالكة مطلقة التصرف في ثروة لا بأس بها، أُودعت باسمها. وخصص لفرانسيز مبلغًا ضخمًا تتقاضى ريعه مدى الحياة، ثم يُوزع رأس المال على أولادها إذا كان لها أولاد. أما باقي الخطاب فكان كما يلي:

«علمتني الأيام أن هناك نوعًا من الإهمال في أداء الواجب لا تستطيع الحلول المتأخرة أن تفض مشاكله، أو تمحو آثاره. فسيئاتنا التي اقترفناها في الماضي، لا تظل قابعة فيه تنتظر الإصلاح، بل هي أشبه بنبات متسلق ينتشر ويضرب بجذوره الجديدة في الأرض، حتى إذا قطعت الساق الأصيلة لم يتأثر النبات ولم يمت. لقد أخطأت حين بحثت عنكِ وأنا أعترف بذلك.. وإذا كان لمثل هذه الحالات من علاج، فليس هو الزواج على أي حال.. وخير لكِ ولي ألا تريني بعد اليوم.. وخير لكِ ألا تبحثي عني، فأغلب الظن أنكِ لن تستطيعي العثور عليَّ.. ولديكما من المال ما يكفيكما.. واللقاء قد يضرنا أكثر مما ينفعنا».

وصفوة القول أن ملبورن اختفى من ذلك اليوم. على أننا لو بحثنا واستقصينا، لعلمنا أن رجلًا إنجليزيًّا لم يذكر اسم ملبورن، نزل في بروكسل بعد فترة وجيزة من انتقال أسرة ملبورن إلى إيفل، وهو رجل لو رأته مسز ملبورن لعرفته.. وفي عصر يوم في الصيف التالي كان هذا السيد يطالع صحيفة إنجليزية، فوقع بصره على نبأ زواج مسز فرانسيز فرانكلاند.. أو مستر كوب.. قد صارت حرم القسيس الموقر مستر كوب.

فهتف السيد: «شكرًا لله».

غير أن ارتياحه الوقتي لم يكن ينطوي على شيء من السعادة. وكما كان فيما مضى مهمومًا مثقل القلب بضمير يؤنبه، فقد صار الآن مكدودًا مرهقًا بفكرة طاغية تلازمه، هي عين الفكرة التي حطمت (أنتيجوني)[3]. فإن إصراره على أداء فريضة كريمة، قد أورثه انحلالًا في الإرادة، ورخاوة في العزم.

فكان في أغلب الأحيان يعتمد على خادم في عودته من النادي؛ لأنه تجاوز القصد في الشراب، فصار لا يستطيع أن يُعنى بنفسه. على أنه كان لا يؤذي أحدًا، ولا يكاد ينبس بكلمة حين يعاقر الخمر.

* * *

## مأساة إملين

### -1-

تصاعدت إلى النافذة صيحات صبيان القرية، تمازجها ضحكات الجالسين عند باب الفندق، غير أن ولدَيْ هالبرو ظلا يدرسان. كانا يجلسان في حجرة نوم في منزل أبيهما صانع الطواحين، مشغولين بقراءة كتب إغريقية ولاتينية، لا عن شغف خيالي يحفزهم إلى قراءة قصص المعارك والملاحم لهوميروس، أو رحلة أسطول الأرجو، أو مأساة الأميرة الطيبة. بل كانا يكدحان في دراسة النسخة الإغريقية للكتاب المقدس، منهمكين في قراءة فصل معقد الأسلوب عن الرسالة المقدسة إلى العبرانيين.

كانت شمس الصيف في غروبها ترسل أشعتها إلى السقف الواطئ المائل، وظلال أشجار الصفصاف الضخمة تميد وتتشابك على الحائط، كأنها جيش أسطوري في مناورة، حين تسرب من النافذة التي تصاعدت إليها تلك الأصوات البعيدة، صوت قريب، هو صوت أختهما، وكانت صبية جميلة في الرابعة عشرة، واقفة في الفناء الأرضي.

- «أستطيع أن أرى قمتي رأسيكما. ما فائدة البقاء فوق؟ لا أريد أن تلعبا مع أولاد الشارع، ولكني أرجوكما أن تنزلا لتلعبا معي».

فنظرا إليها نظرتهما إلى شخص غير جدير بالمناقشة، وصرفاها بكلمة تافهة، فانطلقت مغضبة.. وسرعان ما سمعت خطى كليلة ثقيلة في جوار المنزل، فاعتدل أحد الأخوين في مجلسه، وهمس لأخيه وعينه إلى النافذة: «يخيل إليَّ أني أسمعه مقبلًا»، وجاوز المنعطف رجل يترنح في مشيته، يرتدي ثيابًا سنجابية فاتحة اللون، من طراز عتيق، يلبسه -عادة- صنّاع الريف. فاحمر وجه أكبرهما خجلًا، ونهض عن كتبه، ثم هبط الدرج، بينما ظل الأصغر جالسًا في مكانه، حتى عاد أخوه بعد بضع دقائق.

- «هل رأته روزا؟».

- «كلا».

- «ولا غيرها؟».

- «ولا غيرها».

- «وماذا فعلت به؟».

- «اقتدته إلى حظيرة التبن بشيء من الجهد، ونام. أظن أن سبب غيابه. هو أنه لم يعد أي حجر للطحان (كنش). ولا تزال العجلة الكبرى لجهاز نشر الخشب معطلة في انتظار ألواح جديدة. وحتى فقراء الناس لا يجدون عجلات لعرباتهم».

فقال الأصغر قافلًا كتاب (دونيجان) بصوت مسموع: «وما فائدة الانكباب على هذا؟ آه! لو أننا استطعنا أن نستبقي مبلغ التسعمائة جنيه التي تركتها أمي لأفدنا منها فائدة كبرى. كم كانت حكيمة في تقدير المبلغ اللازم! قدرت لكل منا أربعة وخمسين. ولا شك أننا كنا نستطيع -مع الاقتصاد- أن نحقق آمالنا بهذا المبلغ».

كانت خسارة هذا المبلغ قذى عينهما، وشجى حلقهما. فهو مبلغ جمعته أمهما بجهد جهيد، وإيثار شديد، بأن أضافت إلى ما ورثته عفوًا، كل ما كان يصل إلى يديها بين الفينة والفينة من مال يسير.

وكانت تعول على هذه الذخيرة، في تحقيق أمنيتهما العزيزة، فتلحق ولديها جوشيا وكورنيليوس بإحدى الجامعات، فقد علمت أن مبلغًا يتراوح بين أربعمائة وخمسين جنيهًا يكفي كل واحد منهما ليتم مراحل تعليمه، إذا سار على سنة الاقتصاد، وهما في رأيها قادران على اتباع هذه السنة. ولكنها ماتت منذ عام أو عامين، بعد أن أضناها الجهاد لتحقيق هذه الأمنية.. وآل المال -في غير تحفظ- إلى يد أبيهما، فبدده كله تقريبًا. وبفقده ضاعت الفرص، وانهارت الآمال في أن يحصل كل من ولديها على درجة جامعية.

قال جوشيا أكبر الأخوين: «إني كلما فكرت في هذا الموضوع طار لبي. وها نحن أولاء نكد ونكدح على طريقتنا الخرقاء، وأقصى ما نأمله، أن نشتغل عدة سنوات مدرسين في مدارس أهلية. وقد نقبل بعدها في كلية لاهوتية، ونعين قسيسين تافهين.. بترخيص».

فأثر غضبه في أخيه الأصغر، فارتسمت على محياه علامات حزن هين، وقال مؤسيًا في خفوت: «إننا نستطيع أن نبشر بما جاء في الإنجيل بغير قلنسوة كهنوتية، كما نستطيع ذلك وهي على رأسنا». فرد عليه جوشيا وقد مط شفتيه قليلًا: «ولكننا لا نستطيع أن نرقى».

- «دعنا نبذل خير ما نستطيع من جهد، ونكد وندأب».

فصمت الآخر. وانحنى الأخوان المكتئبان على الكتب مرة أخرى، وكان مبعث كل هذه الكآبة هو صانع الطواحين -هالبرو- الذي يشخر الآن في الحظيرة.. كان في أول أمره صانعًا ناجحًا رغم مزاجه المستهتر. ثم تمكنت منه عادة الإدمان على شراب شديد الأثر، فتعطل عمله منذ ذلك الوقت إلى درجة مؤسفة. وانصرف أصحاب الطواحين عنه إلى غيره لصنع عجلاتهم.. فعطل نصف آلات المصنع بعد أن كانت تشتغل جميعًا. وصار الآن يجد مشقة في لقاء عماله آخر الأسبوع. ومع أنه خفض عددهم، فإن ما لديه من عمل لا يكاد يكفي من بقي من العمال.

وزاد ميل الشمس نحو المغرب، ثم غربت، وسكنت أصوات صبيان القرية، وغشى الظلام حجرة الطالبين. وكان الكون خارج المنزل يستروح أنسام السلام. دون أن يدري أحد شيئًا عن الآمال الفتية المضطرمة التي يخفق بها صدران، تضمهما حوائط يغشاها نبات متسلق، في منزل صانع الطواحين.

وبعد أشهر قليلة غادر الأخوان القرية التي شهدت مولديهما ليطلبا العلم في مدرسة المعلمين. وكانا قبل ذلك قد ألحقا أختهما الصغيرة روزا بمدرسة راقية في أحد المصايف الحديثة. دون احتفال بما يكلفهما ذلك من مال.

-2- تراءى رجل في زي نصف كنسي، يمشي في الطريق المؤدي من محطة سكة الحديد إلى داخل مدينة في الأقاليم. وكان في أثناء سيره يقرأ في حماسة وإصرار، ولا ينقل بصره عن الكتاب، إلا ليستوثق بين الفينة والفينة من أنه يسير في الطريق الصحيح، ويتفادى أن يصطدم بغيره من السابلة. وكان يستطيع أن يراه في تلك الأثناء ممن عرف الطالبين في منزل صانع الطواحين، أن يدرك أن هذا القارئ المتجول إن هو إلا واحد منهما، جوشيا هالبرو.

لقد تبدلت بالقوة الساذجة التي كان ينطق بها وجه الشاب، سيماء التبصر النشيط في وجه الرجل. وكانت أخلاقه تظهر على ملامحه بالتدريج، فيمكنك أن تقرأ في قسماته أنه يرنو إلى مستقبله باهتمام عميق، يزيد عمقًا على الأيام، وأنه يصغي لنداء المستقبل، ولا يكاد ينصت إلى صوت آخر. كانت آماله حارة مضطرمة وإن ظل زمامها بيده. وكانت تحتشد في ذهنه أسس مشروعات لا يحتمل -لفرط كثرتها- أن يكتب لها التوفيق. وهو يعمد إلى إبقاء آماله البعيدة في ضوء أغبش غير ساطع مخافة أن يشغل بها عن غيرها.

كانت ظروفه حتى الآن تشجع على هذه الآمال. فما كاد يحصل على وظيفة مدرس، حتى تعرف برئيس أساقفة أبرشية بعيدة عن موطنه الأصلي، فرأى فيه هذا الرئيس شابًّا مأمول الغد، فشمله برعايته وعطفه.. وها هو ذا الآن يقيم بمدينة فيها أسقفية رئيسة، ويقضي عامه الثاني بالكلية اللاهوتية، وعما قليل سيصبح قسيسًا.

دخل البلدة، ثم دلف إلى طريق خلفي، ثم إلى فناء، وهو لا يزال يقرأ، حتى بلغ مدخل الفناء، فقرأ على قوس ذلك المدخل (المدرسة الوطنية)، وكانت أعمدة هذا القوس متآكلة تآكلًا لا يقدر على مثله إلا التلاميذ وأمواج المحيط. وسرعان ما وجد صاحبنا نفسه في وسط ضوضاء التلاميذ.

كان أخوه (كورنيليوس) يشتغل مدرسًا بهذه المدرسة، وها هو ذا يضع من يده مشيرًا كان يشير به إلى رؤوس أوروبا، ثم يتقدم للقاء أخيه، فيهمس أحد تلاميذ السنة السادسة:

- «هذا أخوه (جوشيا).. الذي سيصبح قسيسًا.. وهو الآن بالكلية».

ويقول آخر: «كورني سيصير قسيسًا هو الآخر عندما يدخر مالًا كافيًا».

وبعد أن يحيي الأصغر أخاه، ولم يكن قد رآه منذ بضعة شهور، يأخذ في شرح طريقة في تدريس الجغرافيا. ولكن هالبرو الأكبر لم يطرب لهذا الحديث، فسأل أخاه: «ولكن كيف تسير في دراستك الخاصة؟ هل تسلمت الكتب التي أرسلتها إليك؟».

وكان كورنيليوس قد تسلمها، فقص على أخيه ما فعل بها.

- «احرص على الاستذكار في الصباح. متى تستيقظ من نومك؟».

فأجاب الأصغر: «في الساعة الخامسة والنصف».

- «أظن أن الاستيقاظ في الساعة الرابعة والنصف ليس تبكيرًا مرهقًا في هذا الوقت من السنة. إنه ليس كالصباح وقت لفهم العلم وهضمه. أنا كلما مللت القراءة -حتى قراءة القصص- ألجأ إلى الترجمة، ولا أدري علة ذلك. قد تكون عملًا آليًّا شيئًا ما، لكنك يا كورنيليوس متخلف من غير شك. ولا يزال أمامك أن تبذل جهدًا مضنيًا في الدراسة إذا شئت أن تغادر هذا المكان في عيد الميلاد التالي».

- «هذا صحيح ولا شك».

- «يجب أن نجس نبض كبير الأساقفة قريبًا، أنا واثق أنه سيقرر قبولك دون مشقة عندما يعرف كل شيء. وخير طريقة في رأي مساعد العميد، وهو رئيس كليتنا، أن تأتي إلى هناك حين يحضر كبير الأساقفة الامتحان. وسيهيئ لك مساعد العميد فرصة للقائه، فاحرص على أن تترك أثرًا طيبًا في نفسه. لقد دلتني تجاربي على أن هذا الأثر يكاد يتوقف عليه كل شيء. وما عداه لغو. وإذا لم تُوفَّق إلى أن تكون قسيسًا فلا أقل من أن تُوفَّق أن تكون شماسًا».

لبث الأصغر يفكر، ثم سأل أخاه: «هل وصلتك خطابات من (روزا) قريبًا؟ لقد جاءني خطاب منها هذا الصباح».

- «نعم إن هذه المدللة الصغيرة تكتب كثيرًا جدًّا. إنها تحن إلى وطنها وإن كانت (بروكسل) مدينة شائقة من غير شك، ولكن يجب عليها أن تستفيد من مقامها هناك أكبر فائدة ممكنة. لقد ظننت أن عامًا يكفيها بعد أن أتمت الدراسة في مدرستها الراقية في (ساند برن)، غير أني رأيت أن أمنحها عامين، تفيد خلالهما من هذه المدرسة. ولا عبرة بالنفقات مهما تبلغ».

بدأ وجهاهما الجافان يلينان ويهشان شيئًا ما حالما انتقل الحديث إلى أختهما التي كانا يؤثرنها على نفسيهما.

- «ولكن أنَّى لنا بالمال يا جوشيا؟».

نظر جوشيا إليه ووجد بعض التلاميذ يقفون قريبًا منه، فابتعد بأخيه بضع خطوات، ثم قال: «لقد حصلت على المال، اقترضته بربح خمسة في المائة من فلاح كان يزرع الضيعة المجاورة لحقلنا، وأنت تذكره طبعًا».

- «وعن السداد؟».

- «سأسدده تدريجيًّا من راتبي. يا كورنيليوس، لا فائدة من أنصاف الحلول؛ فأختنا تبشر بأن تكون فتاة غاية في الجاذبية، إذا فاتها أن تكون في غاية الجمال، وهذا رأيي من سنين. فإن لم يكن وجهها وحده ثروة فإن وجهها وعقلها معًا يكونان ثروة إذا صح ظني وتقديري. ومن الضروري لتحقيق آمالها أن تصبح امرأة مثقفة مهذبة بكل جوارحها. وهذا أمر لا بد منه؛ لكي نسير صعدًا إلى العلا. وستكون كما نرجو لها وسترى. إني أفضل أن أجوع على أن أخرجها من المدرسة».

جعلا يجيلان الطرف في المدرسة التي يقفان فيها. وكان منظرها يبدو في عيني كورنيليوس طبيعيًّا وعاديًّا. أما في عيني جوشيا ذي العواطف المحدودة، القادم من مكان أرقى من هذا المكان، فقد كان المنظر لا يبهج الخاطر، منظر لشيء تركه وراء ظهره من زمن. فقال لأخيه:

- «سأكون سعيدًا حين تغادر هذا المكان، وأراك على المنبر تلقي موعظتك الأولى».

- «ويمكنك أن تقول أيضًا وتراني في معاشي الفخم، بعد أن تكون أنت قد سبقت إلى بلوغ هذه الغاية».

فأجابه في حرارة: «آه.. لا تستهن بالكنيسة، فإن فيها -كما سترى- مجالًا طيبًا لجهود أي رجل نشيط.. إيقاف تيارات الإلحاد، وشرح الآراء الجديدة في الموضوعات القديمة، وإحلال الإيمان بروح الدين محل الإيمان بنصوصه الحرفية»، ثم استغرق في أحلام عن مستقبله، محاولًا أن يقنع نفسه بأن الذي يحفزه إلى العمل والأمل إنما هو التحمس للمسيحية لا لأبهة المنصب.. لقد أخذ العقيدة على عاتقه، فهو مستعد أن يذود عنها بالناب والظفر.. لا غرض له من ذلك إلا أن ينال ما ينال المجاهدون الأبرار من شرف ومجد.

وقال كورنيليوس: «في رأيي أن الكنيسة إذا خرجت عن جمودها وسايرت الزمن، بقيت.. وإلا.. تصور أني اشتريت ذات يوم من إحدى المكتبات نسخة من كتاب البراهين لبالي، أحسن طبعة، بهوامش عريضة وغلاف جيد بتسعة بنسات، فاعتقدت حينئذ أن المسيحية لا بد في محنة».

فأجاب الآخر وقد كاد يغضب: «كلا. كلا. إنما يدل ذلك على أن مثل هذا الدفاع عن الدين صار لا داعي له؛ لأن أعين الناس تستطيع من غير هذه الحجج المنتحلة أن ترى الحق من تلقاء نفسها.. وفضلًا عن ذلك، فقد تخصصنا في الدين المسيحي، ويجب أن نستمسك به مهما يكن. أنا الآن أقرأ (مكتبة الآباء لبوسي)».

- «ستصبح كبير أساقفة يا جوشيا قبل أن تتم قراءتها».

فأجاب أخوه وهو يهز رأسه في مرارة وألم: «آه... ربما بلغت هذه المرتبة... ربما.. ولكن كيف السبيل إلى درجة جامعية. وكيف أصبح أسقفًا كبيرًا بلا مؤهلات كهذه؟

إن (تلوتسون) كبير الأساقفة كان أبوه قماشًا غير أنه تخرج في كلية (كلير). أما أنا وأنت؛ فلم يكتب لنا شرف التخرج في أُكسفورد أو كامبردج. يا إلهي، طالما فكرت فيما كان ينبغي أن نكون.. وفي هذا الأمل الباسم الذي قضى عليه ذلك الرجل اللعين الحقير».

- «كفى. كفى. فأنا أشعر بذلك كما تشعر أنت. وقد تجسمت في نفسي هذه الفكرة مفزعة أليمة، منذ عهد قريب. فلولاه لحصلت أنت على درجتك الجامعية منذ زمن طويل، وربما كنت حصلت على درجة الزمالة، ولكنت أن الآن في طريقي إلى الدرجة الجامعية».

فقال الآخر: «دعنا من هذا.. يجب أن نبذل خير ما نستطيع من جهد».

نظرا محزونين من النافذة من خلال زجاج يغشاه التراب. وكانت النافذة عالية، لا تُرى من خلالها إلا السماء. ثم تبدى تدريجيًّا ألمهما الدفين. ففي وسط هذا السكون همس كورنيليوس قائلًا: «لقد زارني». فغاضت الحيوية من وجه جوشيا، وبدا وجهًا جديبًا لا روح فيه. وسأل لتوه «متى كان ذلك؟».

- «في الأسبوع الماضي».

- «وكيف وصل إلى هنا وقطع هذه الأميال الطويلة؟».

- «أتى بالقطار- جاء يطلب مالًا».

- «آه».

- «ويقول إنه سيزورك».

فأومأ جوشيا إيماءة تنبئ بيأسه واستسلامه. لقد قضى موضوع الحديث على نشاطه وحيويته بقية هذا اليوم. وعاد في المساء بعد أن شيعه كورنيليوس إلى المحطة.

ولكنه لم يقرأ في القطار الذي أقله إلى الكلية كما كان يقرأ في القطار الذي أقله منها: فقد ناء بهذا البلاء المزمن، وضاق بهذه البقعة الدنسة التي تشوه صفحة حياته. وفي اليوم التالي جلس مع زملائه في المكان المخصص للمرتلين، فحجبت ذكريات هذا البلاء عن عينه ذلك اللون الأرجواني البهيج الذي تراءى على الأرض، منبعثًا من خلال الزجاج الملون.

وبعد الظهر كان كل شيء هادئًا في الحقول المجاورة للكاتدرائية، شأن هذه الحقول فيما بين صلوات الأحد. وكان لا يُسمع إلا نعيق الغربان المستمر. وكان جوشيا هالبرو قد تناول غداءه الزهيد، وذهب إلى المكتبة ووقف بها بضع دقائق، ينظر من خلال النافذة الواسعة المطلة على الحقول. فرأى رجلًا يجتاز الحقول في بطء، يرتدي سترة من قماش خشن، وقبعة بيضاء مهدمة، مجهدة الوبر. وفي ذراعه امرأة غجرية طويلة، تلبس قرطًا طويلًا من النحاس، وكان الرجل ينظر نظرة هازلة إلى الواجهة القريبة للكنيسة، فلمح فيه هالبرو وجه أبيه وملامحه. أما المرأة فلم يكن يدري مَن تكون. وما يكاد جوشيا يتعرف على القادم حتى يرى مساعد العميد، وهو في الوقت نفسه رئيس الكلية الذي يهابه جوشيا أكثر مما يهاب كبير الأساقفة، وكان يجتاز الباب الخارجي إلى ممر في الحقول، فاعترضه الرجل والمرأة. ولشد ما فزع جوشيا حينما رأى أباه يلتفت إلى مساعد العميد ويوجه إليه الخطاب.

لم يدرِ ما جرى بينهما من حديث، ولكنه رأى جسمه يتصبب عرقًا باردًا -أن أباه قد وضع يده في ثقة على كتف مساعد العميد، فجفل هذا وانصرف عنه مسرعًا، فنمَّ ذلك عن شعوره. أما المرأة فيبدو أنها لم تقل شيئًا. وما إن ابتعد مساعد العميد، حتى تابع الاثنان سيرهما نحو باب الكلية الخارجي.

فهرع هالبرو إلى الدهليز، ومرق من باب جانبي، ليقابلهما قبل أن يستطيعا بلوغ المدخل الأمامي، الذي كانا يقصدان إليه وأدركهما عند غيضة من شجر الغار.

- «هذا هو الشاب عينه. ما شاء الله يا جوشيا! ألا ترسل لأبيك شيئًا من المال في وقت كهذا، وتدعه يسافر هذه الأميال الطويلة ليلقاك؟».

- «قبل كل شيء... مَن هذه؟».

كذلك سأل جوشيا في وقار شاحب، مشيرًا إلى المرأة المرحة ذات القرط الطويل.

- «السيدة؟ إنها زوجة أبيك! ألا تعلم أني تزوجت؟ لقد أعادتني من السوق إلى المنزل ذات مساء، فتفاهمنا.. أليس كذلك يا سلينار؟».

فقالت المرأة في بسمة بلهاء: «أي نعم اتفقنا.. طبعًا».

ثم سأل صانع الطواحين ابنه: «ما هذا المبنى الذي تعيشون فيه؟ يبدو أنه إصلاحية».

وكان جوشيا يصغي إليهما، وقد شرد لبه، وعلت ملامحه مشاعر اليأس والاستسلام. وأوشك -وقلبه يتفطر- أن يسألهما إن كانا في حاجة إلى شيء عاجل، أو وجبة طعام. ولكن أباه سبقه بقوله: «لقد جئنا نطلب إليك أن تصحبنا، وتشرب معنا نخب سعادتنا في حانة (كوك آند بوتل) التي سنقضي بها اليوم، ثم نتابع السفر لزيارة أصدقاء السيدة في سوق (بنجار)، حيث يضربون خيامهم

مدة ليلة أو ليلتين.. لا أستطيع أن أشهد بجودة أطعمة الحانة، ولكن بها أجود صنف من مشروب (أولد توم) ذقته من سنين طويلة».

«متشكر. ولكني لا أشرب. وقد تغديت»، هكذا كان جواب جوشيا الذي كان يستطيع أن يؤمن بشهادة أبيه في جودة الخمر من رائحة أنفاسه. ثم قال: «إننا هنا مضطرون أن نلتزم حد التزمُّت، ولا يسعني أن أُرى في تلك الحانة الآن».

- «إذَنْ لا تأتِ جنابك. ولكن هذا لا يمنعك أن تتبرع بشيء لمن يسعهم أن يُروا هناك؟».

فقال الابن جازمًا: «لن أدفع بنسًا واحدًا. لقد أخذت ما يكفي».

«أشكرك على لا شيء. على فكرة، مَن هذا الأسقف ذو الساقين النحيلتين المغزليتين، والحذاء المزموم، الذي مر بنا الآن؟ يبدو أنه خاف أن نَسمَّه»، فأخبره جوشيا في هدوء أنه ناظر كليته وسأله في تحفظ: «هل أخبرته باسم مَن تبحث عنه؟».

لم يجب أبوه، بل انصرف مع زوجته الغجرية المتسولة -إن كان صحيحًا أنها زوجته- وسارا في اتجاه الشارع العام، وعاد جوشيا هالبرو إلى المكتبة. ورغم ما جُبل عليه من صرامة وعزم، فقد بلغ به الهوان أن أذرف دمعًا سخينًا فوق الكتب. واشتد به الكرب هذا المساء، إلى درجة لا تقاس إليها تعاسة ذلك الكريه الممقوت، صانع الطواحين. «وفي الليل جلس يكتب خطابًا إلى أخيه، يصف فيه ما حدث، ويغرق في تصوير هذا العار الجديد الذي جلبه أبوه بزواجه من تلك الأفاقة الغجرية. ثم اقترح طريقة للحصول على مال يكفي لإقناع أبيه وزوجته بالهجرة إلى كندا قائلًا: هذا هو الحل الوحيد. أما بقاء الحال على هذا المنوال، فأمر يُطير اللب ويُذهب بالعقل. قد لا يعيب النقاش أو المثال أو الموسيقى أو الكاتب، وقد يضفي صغر المنبت عليه رواء شِعريًّا خياليًّا، يستدر العطف ويثير الخيال. أما رجل الدين في كنيسة إنجلترا، فله شأن آخر يا كورنيليوس، فضعة الأمل تؤدي بكل آماله. فأنت لكي تنجح في الكنيسة، يجب أن يؤمن الناس أولًا بأنك من طبقة السادة، وثانيًا بأنك رجل ذو جاه، وثالثًا بأنك عالم، ورابعًا بأنك واعظ قدير. وربما تحتم شرط خامس وهو أن تكون مسيحيًّا. ولكن الشرط الذي ينشده الناس دائمًا، بكل قلوبهم وأرواحهم وقواهم، هو الشرط الأول، أي أن تكون من طبقة السادة. لقد كنت أستطيع أن أواجه الحياة ولا أبالي أني ابن صانع بسيط، لو أنه كان على شيء من الدماثة وحسن السمعة، فروح المسيحية التواضع.. كنت أستطيع بمعونة الله أن أجابه الحياة مهما كلفني ذلك من عنت وإرهاق. ولكن ماذا أصنع إزاء هذا التشرد المريع، وهذه العلاقات الشائنة؟ إنه إذا لم يقبل ما عرضته عليه، ويغادر إنجلترا حطم آمالنا ودفع بي إلى الموت. إذ كيف نطيق الحياة وصرح آمالنا ينهد، وأختنا العزيزة (روزا) يتدهور مركزها الاجتماعي، فتغدو ابنة لهذه الغجرية؟».

* * *

ساد السرور أبرشية (ناروبرن) ذات يوم، بعد أن عاد الناس من صلاة الصباح. ودار كل حديثهم حول القسيس الجديد (مستر هالبرو)، الذي ألقى موعظته الأولى في غيبة قسيس الكنيسة.

ولم يحدث من قبل أن استثارت مثل هذه المناسبة حماسة الناس. فقد دالت، آخر الأمر، دولة ذلك الأزيز الرتيب، الذي تعوده أهل هذا المكان القديم الهادئ طيلة قرن من الزمان، وأخذ أهل القرية يرددون عبارات الخطاب، كما يردد الناس لازمة الغناء: «يا إلهي، كن أنت عوني وناصري». ولم يكن أحد الناس ليذكر أنه سمع من قبل موعظة دينية، كانت حديث الناس من باب الكنيسة إلى فنائها، فألهتهم عن سيرة مَن حضروا الصلاة، وأنستهم أنباء الأسبوع بوجه عام.

وظلت عبارات الواعظ الرنانة المثيرة، ترددها قلوبهم وخواطرهم طيلة اليوم. وكانت الأبرشية قد ران عليها الركود زمنًا طويلًا. فلا عجب أن كانت أقوال مالبرو حدثًا جديدًا، وأن عباراته صارت تتجاوبها أذهان الشبان والعذارى، والكهول والعجائز، ممن استمعوا إلى خطابه في الصباح.

وكأنما سحرهم بيانه، فجرت عباراته على ألسنتهم، عن غير قصد. وبلغ من إعجابهم به أنهم أخذوا يسترون حقيقة شعورهم، بضحكات خفيفة مصنوعة، فقد اشتد استحياؤهم لما عراهم من أحاسيس، لا عهد لهم بها.

وعجيب أن يتأثر هؤلاء القرويون غير المتدينين بواعظ من النمط الجديد، بعد أن تعودوا أسلوبًا عتيقًا في التربية الروحية، ساروا عليه أربعين عامًا. وأعجب منه، ذلك الأثر البالغ الذي تركه الخطاب في نفوس صاحب المقاطعة وأسرته. وقد حسب هؤلاء أنهم قادرون على الغض من شأن الخطبة العاطفية البحتة، والتهوين من أمر أسلوبها البراق. ولكن جاذبية الأسقف الجديد قد استحوذت على مشاعرهم، كما استحوذت على الآخرين.

وكان مستر فلمر صاحب المقاطعة شابًّا عزبًا، وكانت أمه لا تزال في ربيع العمر، وقد استعادت مركزها القديم في الأسرة منذ توفيت زوج ابنها في أثناء الوضع بعد عام واحد من زواجها، وتركت بنتًا صغيرة ضعيفة. وظل فلمر منذ وفاتها يعيش معيشة خاملة، منعزلًا في المقاطعة، لا يحفزه إلى العمل حافز، فغض ذلك من إقباله على الحياة، واستعادت أمه مكانتها في البيت الكئيب، وقصر عمله، منذ ذلك الحين، على إدارة أملاكه غير الواسعة. جلست أمه إلى جانبه هذا الصباح تستمع إلى الواعظ. وكانت سيدة صريحة سمحة، تشتري بنفسها ما تحتاج، وتعطي بيدها ما تهب، وكانت كلفة بالأزهار العتيقة الطراز، وكانت تجوب القرية في الأيام المطيرة، لتزور أهل المقاطعة.. هذا الشخصان اللذان يتوجان هامة ناروبرون، قد أخذا بفصاحة جوشيا وتأثرا بها، كما تأثر القرويون.

وكان (جوشيا) قد قُدّم إليهما تقدمة عابرة حالما وصل القرية منذ بضعة أيام. ثم زادا به كلفًا حينما سمعا خطابه، فانتظراه لحظات قصيرة ريثما يخرج من غرفته، ليسيرا معه في فناء الكنيسة. تحدثت إليه الوالدة مسز فلمر وأطرت خطبته إطراء حارًا، وشكرت تلك الصدفة السعيدة التي أتت به إلى الأبرشية، وأعربت عن أملها في توفيقه إلى مسكن يريحه.

فعلت وجه جوشيا حمرة خفيفة، وهو يقول إنه وُفِّق إلى استئجار منزل واسع يملكه أحد الفلاحين وذكر اسم الفلاح.

فقالت له إنها تخشى أن يشعر بوحشة في منزله ذاك، وخاصة في المساء. وتمنت لو يجيب رجاءها فيتردد كثيرًا على منزلها، ثم طلبت إليه أن يحدد يومًا يتناول فيه العشاء في ضيافتها. ثم اقترحت اليوم موعدًا لذلك. فإن قضاء أول يوم من أيام الأحد في مسكن ريفي يبعث على الوحشة والملل.

فقال هالبرو إن هذا يسعده كثيرًا، غير أن ظروفه -للأسف- تضطره إلى اعتذار؛ «فأنا لا أعيش في عزلة تامة. فمعي أخت عادت أخيرًا من بروكسل؛ لأنها خشيت، كما تخشين، أن أشعر بالوحدة والوحشة. وستقيم معي بضعة أيام، تعد فيها مسكني، وتنظم أسباب إقامتي. ولم تستطع أن تحضر إلى الكنيسة؛ لأنها متعبة أشد التعب. وهي الآن في المنزل تنتظر أوبتي».

- «إذَنْ أحضرها معك، وهذا أفضل من حضورك وحدك. إنه ليسعدني أن ألقاها.. ليتني عرفت ذلك.. أبلغها إذا سمحت أننا لم نعلم بحضورها إلا الآن».

فشكرها هالبرو، مؤكدًا أنه سيحمل هذه الرسالة إلى شقيقته. ولكنه لا يثق تمام الثقة بأنها ستحضر للزيارة. والواقع أن أمر الزيارة هذه منوط به وحده، (فروزا) تجله وتقدس رغباته، كأنها ابنته البارة. غير أنه خشي ألا يكون معها ملابس لائقة. وأصر على ألا تزور منزل سيد المقاطعة هذا المساء، في غير المظهر الجديد بها، وفي المستقبل متسع لمثل هذه الزيارة.

وعاد إلى المزرعة، يذرع الأرض بخطى فسيحة.. هذا هو الانتصار الأول، الذي أحرزه غداة اشتغاله في الكنيسة، وأعقبته انتصارات. فقد عين قسيسًا في أبرشية مريحة يشرف عليها وحده؛ لأن الرئيس مريض. وقد أثر في الناس أعمق تأثير منذ البداية، وكأن غياب القلنسوة الأسقفية لم يضره شيئًا. وفوق كل ذلك، فقد أقنع أباه، بما بذل من جهد ومال بأن يبحر هو وزوجته إلى كندا، ليكون في مأمن من أن يفسدا عليه آماله.

خرجت (روزا) لتلقاه، فقال لها «كان ينبغي أن تذهبي إلى الكنيسة كما تفعل كل فتاة طيبة».

- «لقد ندمت فيما بعد على عدم ذهابي. ولكني أبغض الكنيسة بغضًا جعلني أستهين.. حتى بموعظتك أنت. وكان ذلك خطأ مني».

وكانت الفتاة التي تتكلم هكذا في مرح ودعابة، شقراء طويلة كأنها من الحور، تلبس ثوبًا حريريًّا شفافًا، ويزينها دلال ورشاقة وجرأة مليحة، وهي نواحي الفتنة التي تجلبها الفتاة الإنجليزية معها من الخارج، ثم لا تلبث أن تفقدها بعد أن تقيم في بلادها بضعة أشهر. أما جوشيا، فشخص جاد، شديد البعد عن الدعابة، والدنيا في نظره شيء هام خطير، لا يتناول في خفة، أحاطها بأمر الدعوة في عبارة حازمة موجزة.

- «إذَنْ فقد اتفقنا يا روزا. فلنذهب، إذا كان لديك فستان يليق بمثل هذه الزيارة المفاجئة. طبيعي أنك لم تفكري في إحضار فستان سهرة إلى مثل هذا المكان النائي».

ولكن روزا وافدة من بلد لا يغفل مثل هذه الشؤون، فقالت:

- «كلا. لقد أحضرته معي.. خوفًا من المفاجآت».

- «حسنًا.. نذهب إذَنْ في الساعة السابعة».

كان النهار يقترب من نهايته. وما وافى الغسق، حتى بدآ رحلتهما على الأقدام. ورفعت روزا طرف ردائها حتى لا يبلله الندى. فاستدار من حولها كأنه بالون. وكان حذاؤها الأطلس تحت إبطها. ولم يكن جوشيا ليسمح لها بأن تظل هذه الحال حتى تبلغ المنزل، فتخلع حذاءها وتستبدل به الحذاء الذي تأبطته، كما كانت تنوي أن تفعل، بل أصر على أن يتم ذلك تحت شجرة، حتى يدخلا المنزل وكأنهما لم يأتيا إليه سعيًا على القدم. فقد كان جوشيا شديد التمسك بالشكليات، بينا كانت روزا لا ترى في هذه الزيارة كلها -من مشي إلى لبس إلى عشاء- إلا لهوًا وتسلية.. لا خطوة حاسمة من خطوات الحياة كما كان يراها جوشيا.

لم تثر فتاة من أخوات القساوسة، ما أثارته روزا من عجب ودهشة في مآدب العشاء. فلم تستطع مسز فلمر أن تخفي دهشتها، وعلت وجهها الريبة. لقد كانت تتوقع أن ترى امرأة متزمِّتة متدينة، فإذا بها تشهد شيئًا يخالف هذا أشد المخالفة، فتاة لعوبًا مسرفة في الدلال. لو أن هذه الشابة صحبت أخاها إلى الكنيسة، لجاز ألا تُقام هذه المأدبة في منزل (نارو برن)، في ذلك اليوم.

وكان البون شاسعًا بين حال الابن وحال الأم، فقد كان السيد أشبه بمن صحا من نومه في ظهيرة صيفية، يحسب أن الوقت لا يزال فجرًا. فلم يتمالك أن يمد ذراعيه ويتثاءب في وجوه النسوة. لقد أحس إحساسًا قويًّا أنه صحا، ففتحت عينه على شيء لم يكن في حسبانه. ولما جلسوا إلى المائدة، جعل يكلمها أول الأمر وفي روحه بعض من عنجهية الحاكم. ولكن سحر الأنوثة سرعان ما أنزله منزله.. ورأته فتاة بروكسل، يرنو إلى فمها ويدها وجسمها، وكأنه لا يدري كيف أبدع كل هذا.

ثم يستغرق في حلم سعيد، يغشاه إحساس عام، لا يحفل بالتفاصيل.

لم يتكلم إلا قليلًا، أما هي فتكلمت كثيرًا، وكانت بادية الارتياح والطمأنينة إلى هذا الترحيب الكريم من أسرة فلمر، وهي أسرة يرهبها أهل هذه المقاطعة أشد الرهبة ويخشونها أشد خشية.

وكان السيد في العام الأخير قد غاض نشاطه، وانزوى بعيدًا عن بهرج الحياة، حتى كاد ينسى ما يحتويه العالم. إلى أن كانت هذه الليلة، فذكرت منه ناسيًا، وأيقظت منه غافيًا. فارتابت أمه في أمره بعض الوقت، ثم آثرت أن تدعه وما يرى، والتفتت إلى جوشيا.

ومع أن جوشيا بعيد النظر، شديد الدأب في سعيه لإصابة أهدافه، فقد تجاوز هذا العشاء كل ما علقه عليه من آمال. فهو حينما كان يُسدي ويلحم في رداء آماله، كان يرى روزا شيئًا صغيرًا لامعًا، يتطلب إظهاره كل ما أوتي هو من كفاية ومواهب. ولكنه أخذ الآن يرى أن روعة جسمها قد تُجدي عليهم جميعًا ما لا تجدي هباته الفكرية. فبينما هو يشق نفقًا في الأرض، إذا بها ترقى سلمًا إلى السماء.

وكتب في اليوم التالي خطابًا إلى أخيه. وكان قد حل محله في الكلية اللاهوتية، يخبره مبتهجًا مسرورًا، بما كان لزيارة روزا من أثر غير متوقع. ووصله برجع البريد خطاب تهنئة يشوبه خبر مشؤوم. فأبوه قد ضاق بمقامه في كندا، وزوجته الغجرية قد هجرته، فشعر بالوحشة والحنين إلى الوطن.

وكان جوشيا في نشوة ابتهاجه بما أصاب من نجاح، قد أوشك أن ينسى همه المزمن. فقد طالت بينهما شقة البين. ولكن ها هو ذا يرتد إليه... فيقرأ في هذا النبأ الموجز أكثر مما كتب أخوه. ويرى فيه نذيرًا بشرٍّ مستطيرٍ.

***

وذات صباح في ديسمبر التالي، قبل عيد الميلاد بيوم أو يومين، كانت مسز فلمر وابنها يسيران ذهابًا وجيئة في طريق الحصباء، الذي يحد واجهة المنزل الشرقية.

وكانت السماء تمطر رذاذًا حتى نصف الساعة الأخيرة قبل الظهر. إنهما يتمشيان قبل الغداء، فيقول الابن لأمه: «تستطيعين أن تدركي يا أماه، أن شذوذ حالتي هو الذي أضفى عليها هذا الرواء الفاتن. وأنتِ إذا تدبرتِ تلك الصدمة التي أصابتني منذ البداية، فشوهت حياتي وقبضتني عن المجتمع، ففقدت آمالي السياسية، ووقفت حياتي وأملي على تربية الطفلة التي تركتها لي (آني). إذا تدبرتِ ذلك، أدركتِ لا مراء، مدى حاجتي إلى زوجة شائقة مثل (مس هالبرو)، تسمو بي إلى حياة أرقى من حياة السائمة».

فأجابت أمه في روح جافة غير صريحة: «إذا كنت متيمًا بها إلى هذا الحد، فلا مفر من الزواج. ولكنها لن تقنع -وسترى- بالعيش في هذا المكان كما تعيش أنت، وأن تهب كل همها وعنايتها لطفلة صغيرة».

- «هذه نقطة الخلاف بيننا. فأنتِ تأخذين عليها أنها لا تنتمي إلى أسرة كبيرة، وعندي أن هذا مما يزكيها؛ لأنه يحد كثيرًا من مطامحها. فكل ما تصبو إليه -كما قالت لي- أن تحيا في هذا المنزل، لا تتجاوز أبواب حديقته إذا لزم الأمر».

- «ما دمت كلفًا بها يا ألبرت، وتنوي الزواج منها، فلا داعي لتلمس المبررات وانتحال الأسباب. إنك تريد خطبتها في هذه المناسبة لا مراء. أليس كذلك؟».

- «هذا لا يطابق الواقع. فأنا ما زلت أدير الفكرة في ذهني. فإذا ظللتُ على رأيي بها بعد زيادة الاختبار والدراسة. فسأحزم رأيي عندئذ وأبتُّ في الموضوع. ولكني أريد الآن رأيكِ الصريح. أتميلين إليها؟».

- «أصرح بذلك في ارتياح. فهي تأخذ باللب منذ النظرة الأولى. ولكن لا أدري أتكون أمًّا عطوفًا على ابنتك أم لا تكون.. يظهر أنك تتعجل الخلاص مني يا ألبرت».

- «كلا.. أنا لست شديد الحمق كما تظنين، ولا أتعجل البت في الأمور، ولكني أفضي إليكِ بما يعن لي من رأي.. فإن وافقتِ عليه، فاذكري ذلك في صراحة».

- «أنا لا أصرح بشيء. وإذا صممت على فكرتك، حاولت أن أقتنع بها.. متى تحضر روزا؟».

- «غدًا».

وكانت استعدادات تجري حينئذ في منزل الأسقف لاستقبال أسرته.. فستعود (روزا) التي أقامت هنا أسبوعين أو ثلاثة في أوائل العام، فكان لمقامها أكبر الأثر في سيد المقاطعة. وسيحضر أخوها الأصغر (كورنيليوس) فينتظم شمل عائلته. ستأتي روزا من وسط إنجلترا، فلا تستطيع أن تصل إلا في ساعة متأخرة من ذلك المساء. أما كورنيليوس فيُنتظر وصوله بعد الظهر. وقد استقبله جوشيا في الطريق الذي يمضي من المحطة، ويخترق الحقول.

وكان جوشيا قد أعد لكل شيء عدته في منزله المتواضع، فسار في الطريق، وقلبه يفيض بشرًا وشكرًا -إذا صح أنه استشعر البشر أو الشكر طول حياته- وقد مهدت سمعته الطيبة سبيل أخيه في السلك الديني، تمهيدًا غير متوقع، وكانت نفس جوشيا تتوق إلى مناقشة أخيه فيما أفادا من تجارب في الحياة، وأن كان لديهما موضوع أكثر استثارة وتشويقًا. فرأيه منذ شبابه أن الاشتغال في الكنيسة في الريف، يضفي على المرء شيئًا من الجلال، بجهد قليل، لا يغني المشتغلين بأي عمل أو مهنة أخرى. وقد أيدت الحوادث صدق هذا الرأي.

ولم يكد يسير نصف ساعة، حتى لمح (كورنيليوس) مقبلًا. وتقابل الأخوان. ولكن كورنيليوس لم يكن مشرق النفس كما كان أخوه، فحسب هذا أن الإطراق والتجهم الباديين على كورنيليوس يرجعان إلى ما يبذل من جهد في الدرس والتحصيل؛ إذ كان يشغل مركزًا لا بأس به، وليس ثم ما يبرر وجومه غير ذلك.

وحادثه في شأن (روزا) في المساء، والأثر المحتمل لهذه الزيارة الثالثة، ثم قال وقد تهلل تهللًا رزينًا: «قبل عيد الفصح التالي ستكون روزا زوجًا لصاحب المقاطعة يا بني».

فهز كورنيليوس رأسه وقال: «سيكون الأوان قد فات».

- «ماذا تعني؟».

«انظر»، وأبرز صحيفة (فونتول)، وأشار بإصبعه إلى فقرة قرأها جوشيا تحت عنوان (قضايا صغيرة). تروي قضية عادية لرجل سيق إلى السجن مدة سبعة أيام؛ لأنه تصرف تصرفًا شاذًّا، فقد كان يكسر النوافذ في تلك المدينة.

فسأله جوشيا: «وماذا في ذلك؟».

- «لقد وقع هذا الحادث ذات مساء، وكنت في الطريق.. والشخص المعتدي هو أبوك».

- «لا يمكن! كيف؟ لقد أجزلت له المال حين وعدني بالإقامة في كندا».

- «ولكنه عاد إلى قواعده سالمًا، سالمًا معافى».

ثم روى (كورنيليوس) في نبرته الحزينة بقية القصة. فقد شهد الحادث دون أن يراه أبوه. وسمع أباه يقول إنه ذاهب إلى ابنته التي ستتزوج من سيد ثري. أما الجانب السعيد الوحيد في الحادث المشؤوم، فهو أن اسم الأب قد كتب في الجريدة: «جوشيا ألبرو»، فقال أكبر الأخوين:

- «إذَنْ فقد قهرنا!! قهرنا ونحن على أعتاب نصر منتظر!! كيف علم بأمر زواج (روزا)؟ يا لله! لكأنما كتب عليك يا كورنيليوس أن تحمل أنباء السوء أبدًا.. أليس كذلك؟».

- «هو ذلك.. مسكينة روزا».

ثم واصل الأخوان سيرهما بقية الطريق إلى منزل جوشيا، وهما يغالبان البكاء من وقع الصدمة، وفرط الخجل. وخرجا في المساء لاستقبال روزا، وأحضراها إلى القرية في عربة. وما إن بلغت المنزل وجلست إليهما، حتى أوشكا -وهما يتأملانها- أن ينسيا الهم الدفين، الذي لا تدري الفتاة من أمره شيئًا.

وزارهم في اليوم التالي مستر (فلمر) ووالدته، ثم قضى الجميع يومين أو ثلاثة أيام، ملئوا في خلالها نشاطًا ومرحًا. وثبت بما لا يحتمل الشك أن السيد تسيره عاطفته.. وأنه يتمخض عن قرار.

وفي يوم الأحد قام (كورنيليوس) بالقداس، وتولى (جوشيا) الوعظ، وكانت روزا من مسز فلمر بمكان الإيثار والعطف، وكأنها ابنتها. ولعلها هيأت نفسها للترحيب بما لا مندوحة عنه، وكان ترحيبها لبقًا كيسًا. وكان على الفتاة الحسناء أن تمضي بعد الظهر مرة أخرى مع السيدة الكبيرة، لتشرف على إعداد وليمة الأبرشية، التي تقام في المنزل احتفالًا بعيد الميلاد، ثم تحضر العشاء، وتنتظر عودة أخويها لاستصحابها إلى منزلهما في المساء. وكانا مدعوين أيضًا للعشاء، ولكنهما اعتذرا، لارتباطهما بموعد.

وكان موعدًا ذا صبغة قاتمة. فهما ذاهبان للقاء أبيهما بعد أن انتهت اليوم مدة عقوبته في سجن (فونتول)، ليثنياه عن زيارة (ناروبرن)، ويحملاه على العودة إلى كندا، أو إلى قريته القديمة في وسط إنجلترا، أو غيرها، بحيث لا يفسد عليهما الحياة، ولا يقضي على أمل روزا في القران المبارك الذي يتأرجح الآن في كفة الميزان.

أتى آل فلمر لاستصحاب روزا إلى منزلهم، وما كادوا يخرجون، حتى بدأ الأخوان رحلتهما دون أن يتناولا العشاء أو الشاي. وأخرج كورنيليوس -وكان أبوه يوجه خطاباته إليه- ذلك الخطاب الجاف الذي أرسله إليه أبوه، فأدى إلى هذه الرحلة، وجعل يقرأه ثانية في أثناء سيره.

لقد أرسله إليه أبوه في الليلة الماضية، حالما أطلق سراحه.. يذكر فيه أنه سيتوجه إلى نارو برن عقب فراغه من كتابة الخطاب. وأنه مفلس، لذا فسيقطع الطريق على القدمين. وسيمر في طريقه بمدينة (إيفل) حوالي الساعة السادسة في اليوم التالي. ويتناول طعام العشاء في فندق (كاسل)

بإيفل، ويأمل أن يأتي له ابناه بعربة يجرها حصانان أو ما إلى ذلك من المركبات، حتى لا يشينهما بحضوره على هيئة جوال أفاق.

- «هذا يوحي بأنه يُعنى بمركزنا بعض الشيء».

ولكن جوشيا أدرك التهكم الكامن في رسالة أبيه، ولم يرد. وسادهما صمت وهما يقطعان معظم الطريق. وكانت المصابيح تضيء (إيفل) حين بلغاها.. فرأى (كورنيليوس) ولم يكن يعرفه أحد في هذه الناحية، وكان رداؤه غير كنسي، أن عليه هو أن يمر بفندق كاسل. وسأل عنه عند باب الفندق، وأجيب بأن شخصًا يتصف بهذه الأوصاف قد غادر المكان منذ ربع ساعة! بعد أن تناول عشاءه في المطعم. وأنه كان سكران، يلعب الخمر برأسه.

قال جوشيا لما عاد إليه كورنيليوس يحمل هذا النبأ: «إذَنْ لا بد أننا قابلناه ومرنا به في الطريق... نعم قابلنا فعلًا رجل يترنح في مشيته، تحت الأشجار القائمة على الجانب الآخر من (هنفورد هل)، ولكن الظلام كان حالكًا فلم نتبينه تمامًا».

وسرعان ما عادا صوب القرية. وقطعا شطرًا كبيرًا من الطريق دون أن يتبينا شيئًا. ولكن بعد أن قطعا نحو ثلاثة أرباع المسافة، سمعا أمامها وقع أقدام غير رتيبة.

واستطاعا أن يستبينا شبحًا ضاربًا إلى البياض في الظلام الدامس، فتبعاه وهما في ريبة من أمره. والتقى الشبح بأحد السابلة، وكان هو الشخص الوحيد الذي أبصراه في هذا الطريق المهجور. وسمعاه يسأله عن الطريق إلى (ناروبرن). فأجاب الرجل -ولم يعد الصواب في جوابه- أن أقصر طريق هو أن تنحرف عند السياج المجاور للقنطرة التالية، وأن تسير في الطريق الضيق الذي يتفرع عندها ويخترق المروج.

فلما بلغ الأخوان مطلع السياج، انحدرا في الممشى، ولكنهما لم يدركا مبعث شقوتهما، حتى اجتازا مرجين أو ثلاثة، وتراءت لهما أضواء منزل سيد المقاطعة من خلال الأشجار. ولم يكن أبوهما ماشيًا، بل كان جالسًا على الجسر المبتل لحظيرة مجاورة. فلما رأى شبحيهما صاح بهما: «إني ذاهب إلى نارو برن، فمَن عسى أن تكونا؟».

ذهبا إليه وكشفا له عن شخصيهما، وذكراه برأيه الذي أبداه في خطابه، وهو أن يلتقيا به في (إيفل).

فقال لهما: «يا للشيطان.. لقد نسيت. والآن ماذا تريداني أن أفعل؟»، وكانت نبرته شكسة غير ودية.

وتلت ذلك مناقشة طويلة، احتدمت حالما بدآ يذكران له أن الأليق به ألا يذهب إلى القرية. عندئذ أخرج الطحان من جيبه زجاجة، وتحداهما أن يشربا منها إذا كان يريدان التفاهم معه، ويحسبان

أنهما رجلان. ولم يكونا قد ذاقا الخمر منذ سنين. ولكنهما رأيا ألا مانع هذه المرة، حتى لا يثيرا حقيقة أبيهما دون مبرر.

قال له جوشيا: «وماذا فيها؟».

- «قطرة من زبيب خفيف ممزوج بالماء.. إنها لا تؤذي.. اشرب من الزجاجة».

فرفع جوشيا زجاجة الخمر إلى فمه، ورفع أبوه قاعها إلى أعلى، كي يبتلع كمية كبيرة برغمه، فتدفق السائل إلى معدته وكأنه رصاص منصهر. وقال أبوه مقهقهًا:

- «أحسنت.. إنه كحول خالص.. هاها».

فسأله جوشيا وقد طار صوابه، وإن حاول أن يصطنع الهدوء:

- «ولماذا تخدعني هكذا؟».

- «لأنك خدعتني يا بني بنفيي إلى هذا القطر اللعين، قائلًا إن ذلك لصالحي.. لقد كنتما منافقين تقصدان التخلص مني لا أكثر ولا أقل.. ولكني أقسم.. أني لكما كفء وند.. وسأفسد عليكما أمركما، فلا تجرؤان على الوعظ في الكنيسة.. ستتزوج ابنتي من سيد هذه المقاطعة.. سمعت هذا النبأ.. قرأته في جريدة».

- «هذا قول سابق لأوانه».

- «أنا أعلم أنه في أوانه.. وأنه حق.. وأنا والدها ووليها، فأنا الذي أزوجها.. وإلا فسأحيلن الدنيا جحيمًا من الصخب.. هل هذا منزل السيد؟».

نفدت حيل جوشيا، فتولاه يأس مرير.. ولم يكن (فلمر) قد صرح برغبته في الزواج.. ولم يتم رضاء أمه، فلو ظهر أبوهم على مسرح الحوادث في الأبرشية، لانهدم أشمخ قصر بنته الأماني والآمال.

نهض الأب وهو يقول: «إذا كان السيد يقيم في هذا المنزل، فإني ذاهب لزيارته. لقد أتيت من كندا مع حظها السعيد.. هاها.. أنا لا أضمر للسيد سوءًا، ولن يريد بي إلا الخير. ولكني أود أن أحتل مكاني من الأسرة، وأن استمسك بحقوقي.. وأحط من كبرياء المتجبرين».

- «ها أنت ذا قد أفلحت... أين تلك المرأة التي أخذتها معك إلى كندا؟».

- «المرأة؟ إنها زوجتي.. زواج شرعي قانوني كالدستور الذي تخضع له، علاقة أكثر شرعية من علاقتي بأمك، قبل أن يمضي على ميلادك بعض الوقت».

وكان جوشيا قد سمع منذ سنين طويلة همسًا خفيفًا، ينبئ أن أباه قد غرر بأمه أول ما عرفها، ثم كفر عن خطيئته فيما بعد، ولكنه لم يسمع هذا النبأ من شفتي أبيه قط، فكان هذا الإعلان ضربة قاصمة لا يقوى على احتمالها. فعاد القهقرى حتى بلغ السياج. وقال: «لقد انتهى كل شيء.. وقُضي علينا أجمعين».

ومضى الصانع قدمًا يلوح بعصاه في نشوة النصر.. ووقف الأخوان جامدين، يريان هيكله السنجابي يتسلل على الطريق، بخطى واسعة وئيدة، تزين هامته أضواء يبعثها منزل (ناروبرن)، ولعل (ألبرت فلمر) جالس إلى روزا في تلك اللحظة.. لعله ممسك بيدها، يطلب إليها أن تكون شريكة حياته.

وتقدم هذا الشبح السنجابي المترنح، ليمحو كل هذه الآمال.. ثم تضاءل الشبح في الظلام. ثم اختفى فجأة بجانب قنطرة وسمع صوت شيء يغوص في الماء.

«لقد غاص في الماء»، كذلك قال كورنيليوس وهو يتقدم بسرعة إلى حيث اختفى والده. فلما استفاق جوشيا من غشية أذهلته، هُرع إلى جانب أخيه قبل أن يخطو هذا عشر خطوات، وهمس في صوت أجش، وهو يمسك بذراع كورنيليوس: «قف. قف. ماذا تريد أن تفعل؟».

- «أريد إنقاذه».

- «نعم. نعم. وكذلك أنا.. لكن انتظر لحظة».

- «لكن يا جوشيا».

- «حياتها وسعادتها يا كورنيليوس كما تعلم، وسمعتك وسمعتي.. وفرصتنا في الرقي معًا نحن الثلاثة».

وأمسك بذراع أخيه، واشتدت عليها قبضته. فوقفا يلهثان، واستمر تلاطم الماء، وغوص الرجل قريبًا من القنطرة. وكانت تسطع فوقها الأضواء المرجوة، مقبلة من مشتل المنزل، تتلألأ بين أشجار، تتمايل أغصانها العارية ذات اليمين وذات الشمال.. لقد لبثا جامدين زمنًا يكفي لإنقاذ أبيهما مرتين.

ثم ضعف صوت الماء، واستطاعا أن يسمعا صوت غرغرة وهتافًا يردد: «أدركوني.. غريق.. روزي.. روزي».

- «فلنذهب! يجب أن ننقذه يا جوشيا».

- «نعم. نعم. يجب. يجب».

وظلا مع ذلك جامدين. ينتظران ما يحدث، وقد أمسك كل منهما بذراع أخيه، وفكر فيما فكر فيه.. وكأن أثقالًا من الرصاص قد شدت إلى أقدامهما فلم تعد تطاوعهما.. وساد المرج يكون.. وخيل إليهما أنهما يستطيعان رؤية أشباح تتحرك في المشتل، وأن الهواء هناك يضوع بقبلات عاطرة.

وأخيرًا سار كورنيليوس وجوشيا في وقت معًا. بلغا جسر الجدول بعد دقيقتين أو ثلاث، ولم يريا في أول الأمر شيئًا، مع أن الماء لم يكُ بالغ العمق، ولا كان الليل بالغ الظلام. ولكن معطف أبيهما الكشمير كان يتراءى واضحًا، وإن كان راسبًا في قاع الجدول. وجعل جوشيا يجيل الطرف هنا وهناك.

ثم قال: «لقد جرفه الماء إلى القبو».

وكانت الترعة، فيما يلي قنطرة المشاة، تضيق فجأة، فتصير إلى نصف عرضها، وينساب الماء تحت قبو تمر من فوقه العربات إلى وسط المروج وقت تجفيف العشب.

وكنا في موسم الفيضان، فكانت القناة مترعة بالماء، تتكسر عليها الموجات الخفيفة بين الحين والحين.. وعندئذ تراءى شيء باهت، ينزلق تحت القبو ثم يختفي في الحال.

فذهبا إلى الطرف الآخر للقبو، دون أن يريا شيئًا.. وظلا فترة طويلة ينظران من جانبي القبو، علَّهما يريان شيئًا.. غير أن كل ذلك ذهب أدراج الريح.

- «كان ينبغي أن نسرع أكثر مما فعلنا» هكذا قال كورنيليوس، وضميره يعاتبه، حينما بلغ الإعياء منهما مبلغه، وتصبب جسماهما عرقًا.

فأجاب جوشيا في أسى وأسف: «أظن ذلك»، ثم رأى عصا أبيه على الشاطئ، فأمسكها وهو يتلهف، وغرسها في التربة وسط الحلفاء.. ومضى الأخوان.

فهمس (كورنيليوس) في أذن أخيه حين اقتربا من باب منزله:

- «هل نذكر شيئًا عن هذا الحادث؟».

- «وما الفائدة؟ لا خير في الإفضاء. ويجب أن ننتظر حتى يعثروا عليه».

ثم دلفا إلى المنزل، واستبدلا بملابسهما ملابس أخرى، واتخذا سمتهما إلى منزل السيد، فبلغاه حوالي الساعة العاشرة. ولم يكن به سوى أختهما وثلاثة من الضيوف.. وجار من ملاك الأراضي وزوجته.. والقسيس القديم العليل.

وكانت روزا قد فارقتهما من فترة وجيزة، ولكنها شدت على يديهما في شوق وسرور ومرح، وكأنها لم ترهما منذ سنين.. وابتدرتهما بقولها:

- «يبدو عليكما شيء من الشحوب».

فأجاب أخواها أنهما قطعا مسافة طويلة سعيًا على القدم.. وأنهما متعبان شيئًا ما.. وكان الجميع منشغلين بشيء أو بآخر. فجار السيد وزوجته يرحبان بالضيوف ترحيبًا لبقًا، وفلمر يقوم بدور المضيف، متحمسًا لدوره شغوفًا به. وانصرفوا في الساعة الحادية عشرة، واعتذروا عن قبول عربة تقلهم إلى منزل جوشيا.. فالمسافة غاية في القصر، والطريق جافة.. وأوغل السيد معهم في جوف الظلام ليشيعهم، وتجاوز في ذلك ما تتطلبه المجاملة. ثم انتحى بروزا جانبًا، واختصها بتحية غريبة مبهمة.

وبينا هم يسيرون، قال لها جوشيا، وهو يحاول الدعابة ما أمكن:

- «روزا ماذا في الأمر؟».

فبدأت تجيب في لهث واضطراب: «أوه.. أنا.. هو».

فقال: «لا داعي للإجابة، إذا كان هذا السؤال يزعجكِ».

والواقع أن اضطرابها كان شديدًا، فلم تقوَ أول الأمر على الاسترسال في كلام متصل منسجم، بعد أن تطايرت تلك الروح اللبقة التي كسبتها من الخارج.. ثم هدأت نفسها قليلًا وقالت:

- «لست مضطربة.. ولم يحدث شيء.. كل ما في الأمر أنه قال: إنه ينبغي أن يطلب إليَّ شيئًا ما، في يوم ما.. وقلت لا داعي لأن يطلبه الآن.. لم يقل ماذا يطلب..

وسيأتي ليحدثكما في أمره. لقد كان يود أن يحدثكما الليلة، ولكني رجوته ألا يتعجل.. على أني واثقة أنه سيأتي غدًا».

* * *

مضت تسعة أشهر، وكنا في الصيف. وكان الحصادون ومجففو العشب يشتغلون في المروج، وأمامهم منزل السيد. فكان معظم حديثهم يدور حوله. كانوا كثيرًا ما يتحدثون بأنباء السيد والسيدة الشابة أخت القسيس، وكانت السيدة قد أثارت اهتمامهم جميعًا، وفازت بإعجاب كثرتهم.

وكانت روزا سعيدة، إذا أمكن أن توصف امرأة بهذه الصفة في وقت من الأوقات. ولم تكن تدري شيئًا عن مصير أبيها. وكانت تتساءل أحيانًا وقد تولاها عجب -قد لا يخلو من إحساس بالراحة.. «تُرى لماذا لم يكتب إليَّ من مستقره في كندا؟».

وكان أخوها جوشيا قد عين، بعيد زواجهما، قسيسًا ذا معاش في بلدة صغيرة، وحل كورنيليوس محله في نارو برن.

كل الأخوان ينتظران كشف جثة أبيهما، والقلق العميق يتولاهما.. وكانا يتوقعان كل يوم أن يحمل نبأها غلام قادم من المروج.. ولكن ذلك لم يكن. ومرت الأيام والأسابيع والشهور.. وأقبل الزواج وولى. وتسلم جوشيا عمله الجديد، دون أن تسمع صرخة تنطلق فوق أشلاء صانع الطواحين.

حتى كان شهر يونية، والناس يجتثون المروج، ويحجزون المياه، ويحولونها عن مجاريها لصالح الحاصدين، فكشف الجثة. فقد كان رجل يضرب بمنجلة منحني الظهر. فوقع بصره على داخل القبو، ولمح شيئًا يشتبك في العشب الذي انحسر عنه الماء أخيرًا. وأجرى تحقيق بعد يوم أو يومين، ولكن أحدًا من الناس لم يتعرف على الغريق، فقد نال السمك والماء من جسمه ما أخفى معالمه.. ولم يكن يحمل ساعة أو شيئًا ينبئ عن شخصيته.. وانتهى الأمر بأن صدر الحكم بأنه شخص مجهول غرق قضاء وقدرًا.

ولما كانت الجثة قد وُجدت في أبرشية (نارو برن)، فقد وجب أن بدفن الجثة وفحصه في هدوء: «أنا هنري جيلز، المدعي العام الصلاة على روحه.. أو ينيب عنه قسيسًا آخر.. أما هو فلا قبل له بأداء هذه المهمة. حضر جوشيا، وتسلم أمر المدعي العام بدفن الجثة وفحصه في هدوء: «أنا هنري جيلز، آمر بدفن الجثة التي قرر قضاة التحقيق أنها لذكر بالغ مجهول... إلخ».

أدى جوشيا هالبرو واجب الصلاة على روح الفقيد على نحو ما، ثم لحق بأخيه في منزله، دون أن يقبل أحدهما دعوة أختهما للغذاء، بحجة أنهما يتناقشان في مسائل، فجاءتهما بعد الظهر مع أنهما زاراها في الصباح.. ولم يكونا يتوقعان رؤيتها ثانية. وكانت عيناها اللامعتان، وشعرها الأسمر، وقبعتها الوردية، وقفازها الليموني، وخدها الأسيل الناضر، كانت هذه المجالي البهيجة تشيع في المنزل بريقًا يخطف بالأبصار، ويرهق نفسيهما الحزينتين الكئيبتين.

قالت روزا: «فاتني أن أخبركما بأمر عجيب حدث قبل زواجي بشهر أو شهرين.. شيء قد يكون ذا صلة بحادث الرجل المسكين الذي دُفن اليوم.

«حدث ذلك ليلة أن كنت في منزل ألبرت، انتظر عودتكما لمرافقتي.. كنت جالسة مع ألبرت في الحديقة الشتوية والدنيا سكون، فخُيِّل إلينا أن صيحة تتردد في المرج البعيد.. ففتحنا الباب.. وسرعان ما أحضر ألبرت قبعته، وتركني وحدي، فسمعت الصيحة تتردد.. فاضطرب ذهني حتى خُيِّل إليَّ أن اسمي هو ما يتردد.. ولما عاد ألبرت كان السكون قد عاد. وقلنا إنها صيحة سكران لا صوت استغاثة.. ونسينا الحادث. ولم يخطر ببالي، إلا بعد تشييع جنازة اليوم، أن ما سمعناه لم يكن غير صياح هذا الرجل الغريب. أما سماع اسمي فلم يكن بطبيعة الحال إلا وهمًا، أو لعل له زوجة أو ابنة تحمل هذا الاسم. مسكين هذا الرجل».

ولما خرجت روزا، ساد الأخوين سكون وإطراق، حتى قال كورنيليوس: «إنها سوف تعلم السر عاجلًا أو آجلًا».

- «كيف؟».

- سيخبرها واحد منا.. أتظن أن قلوب البشر خزائن من فولاذ، فتستطيع الاحتفاظ بهذا السر إلى الأبد؟».

فقال جوشيا: «نعم. أظنها كذلك في بعض الأحيان».

- «كلا سيشيع السر.. وستشقى به قلوبنا».

- «وكيف ذلك؟ أنحطم روزا ونقتلها؟ أنجلب العار على بنيها، ونهوي بأسرة فلمر معنا إلى الحضيض؟ كلا ثم ألف مرة كلا! إني لأفضل أن أغرق نفسي حيث غرق على أن أفضي بهذا السر. كلا.. كلا. ولا ريب أن هذا رأيك أيضًا يا كورنيليوس».

فتشجع كورنيليوس، وأقصر عن هذا الحديث. ومضى وقت طويل لم يلقَ خلاله جوشيا.

وما انتهى العام التالي، حتى كانت روزا قد أنجبت وارثًا لأسرة فلمر.. وجعل أهل القرية يدقون الأجراس الثلاثة كل مساء طيلة أسبوع أو يزيد.. ويمرحون، ويحتسون خمر مستر فلمر. وزار جوشيا نارو برن مرة أخرى عند تعميد الطفل.

ولم يكن بين الجمع الذي التأم لهذه المناسبة شخص أكثر اكتئابًا وأقل اهتمامًا من الأخوين الكنسيين، فقد كان يمثل في خاطريهما أبدًا شبح يرتدي معطفًا من الكشمير. وسارا في المساء بين الحقول، فقال جوشيا: «إن روزا في حالة طيبة.. أما أنت فتشتغل قسيسًا أجيرًا، والغالب أنك ستستمر هكذا إلى آخر حياتك. وأنا أيضًا.. ما قيمتي بمعاشي التافه؟

... إذا أردت الحق، فالكنيسة أمل جدب مقفر لمن يشتغلون بها من غير ذوي الجاه والنفوذ، لا سيما حين تفتر حماستهم، وتهن عزائمهم. أما خارج الكنيسة فأمام المصلح الاجتماعي فرصة أوسع، لا يعوقه فيها تعصب أو عرف. ليتني واصلت إصلاح الطواحين.. وقنعت بكسرة الخبز.. وحريتي».

وانحرفت أقدامهما من غير قصد إلى شاطئ النهر.. ووقفا على حافة القنطرة التي يعرفانها جيدًا.. هذه هي السدود.. وهذا هو القبو.. وهذا قاع النهر تتراءى فيه طبقة من الحصباء وراء الماء الصافي.

وكانت أجراس الكنيسة تدق، ويسمع لها رنين تشوبه صيحات القرويين المتحمسين. قال جوشيا وهو ينظر إلى الحلفاء: «انظر. ألم أُخْفِ عصاه هناك؟».

وهب نسيم عابر في اللحظة التالية، فلمع شيء أبيض في الموضع الذي أشار إليه جوشيا. فقد نمت شجيرة مستقيمة العود من الحور الفضي اللون وسط الحلفاء.

والبريق الأبيض ينبعث من أوراق هذه الشجيرة.

فقال جوشيا: «لقد نمت عصاه وأورقت! كانت عصا خشنة قطعها من السياج على ما أذكر». وكلما هب النسيم، مال لون الشجيرة إلى البياض، فلم يعودا يحتملان النظر إليها.. فانطلقا بعيدًا.

ثم غمغم كورنيليوس وهو يقول: «إني أراه كل ليلة.. آه! إننا نقرأ الإنجيل عبثًا يا جوشيا.. وإن في صبرنا على حمل الصليب دون ما تورع أو خجل لبطولة أي بطولة!

كم من مرة أحسست برغبة ملحة في أن أضع حدًّا لمتاعبي.. في نفس هذه البقعة». فقال جوشيا: «ونفس هذه الفكرة تساورني أنا أيضًا»، فهمهم أخوه: «وربما نفذنا الفكرة يومًا ما».

وأجاب جوشيا في عبوس وكدر: «ربما».

ثم عادا أدراجهما إلى المنزل، وفي رأس كل منهما فكرة.. يتدبرها إذا هدأ الليل، أو سكن النهار.

## في الجولة الغربية

### -1-

كان مصدر الارتباك الذي أصاب حياة هاتين السيدتين الوادعتين رجلًا لا يتسم بالعظمة في أي معنى من معانيها، وقد رآهما أول مرة ذات مساء في شهر أكتوبر، في مدينة ملشستر.

فقد وقف في الحقول في تلك الأمسية، يحاول أن يتأمل من خلال الظلام ذلك الأثر العجيب من آثار العمارة في العصور الوسطى بإنجلترا.. وهو مبنى الكاتدرائية الشامخ، الذي يرتفع في المرج الرطيب المتفسح أمامه، والذي يستدق كلما زاد ارتفاعًا. وقد أدرك بسمعه أكثر مما أدرك ببصره، أن حوائط الكاتدرائية قائمة أمامه.

فهو لم يرَ هذه الحوائط، ولكنها عكست تجاهه صوتًا هادرًا مقبلًا من الطريق المؤدية إلى ساحة المدينة. كانت الضوضاء تنصب على الميناء، ثم ترتد إلى مسامع ذلك الرجل.

فأرجأ تأمل البناء الرائع المهجور إلى الغد، وأخذ ينصت إلى ضوضاء يختلط فيها صوت الأراغن البخارية، ورنين النواقيس الكبيرة، والأجراس الصغيرة، وخشخشة الجلاجل، وصيحات متباينة، لا تستبين منها كلمة واحدة. ورأى من حيث أقبلت الضجة نورًا باهتًا ترتفع ألسنته الهواء، فيمَّم شطر هذه الناحية، ومر من تحت باب ذي قباء، ومضى في الطريق المستقيمة المؤدية إلى الساحة.

ولو أنه ذرع أوروبا كلها، باحثًا عن منظر يفوق هذا المنظر في تناقضه، لما وجد إلى ذلك سبيلًا. فقد كان لونه ولهبه، أشبه شيء بجحيم دانتي في مهزلته الإلهية وكان في طربه ومرحه أشبه شيء بما كان يغشى عالم الأولمب من طرب ومرح. وكان نور باهر، يشوبه دخان كأنه أسلاك النحاس الصفراء ينبعث من مصابيح نفطية ركبت في الخيام والحوانيت المؤقتة، التي ضاق بها هذا الميدان الفسيح. ويتراءى أمام هذه الأضواء المتألقة عشرات من البشر، يقفزون يمنة ويسرة مقبلين ومدبرين، كما يقفزون إلى أعلى، ويهبطون إلى أسفل، ويستديرون، كأنهم البعوض في أثناء الغروب.

وكانت حركاتهم رتيبة محكمة، يخيل إليك أن آلات تنظمها وتضبطها، وسرعان ما ترى هذه الآلات رأي العين. أما الأشباح فكانت أصحاب الأرجوحات، وخشبات التوازن وما إليها. وأما قلب المكان فكانت تشغله دوارات بخارية، تنبعث منها ألحان الأراغن.

وما لبث الشاب أن آثر شهود الناس في النور الساطع على شهود عمارة في الظلام. فأشعل غليونه القصير، وأمال قبعته إلى جانب من رأسه، ووضع إحدى يديه في جيبه لينسجم مع الوسط الجديد. واقترب من أكبر الدّوارات البخارية، وهي دوارة رائعة الصقل، كانت سرعتها حينذاك قد بلغت مداها. وكان يتوسطها مزامير تدور الدوارة وفق أنغامها، فوجهت المزامير أبواقها النحاسية إلى

هذا الشاب، وتراءت لعينه فبهرته، تلك المرايا البلّورية المثبتة في أركان الدوارة، والتي تدور إذا دارت، فيتبدى فيها على نسق بديع منظر الدائرين، وقد امتطوا صهوات الخيل الصناعية.

ويسهل عليك أن تستبين أنه يختلف عن جمهرة هذا الحشد، فهو شاب راق مهذب لا تصادف مثله إلا في المدن الكبرى، وعلى الأخص في لندن، رقيق البنية، حسن البزة، وإن لم يكُ زيه من أحدث طراز، ويدل ظاهره على انتمائه إلى إحدى المهن المحترمة، وليس في نظراته ما ينبئ عن الحزم أو الصلابة أو النشاط؛ فوجهه أميل إلى البشاشة، وعواطفه حساسة فيما يبدو. فهو إذا استعرنا العبارة المأثورة «رجل لا يمثل الطبقة الوسطى، في عصر المادة الدنيئة التي طغت على الحب، واغتصبت مكانه المقدس من القلب».

وكان الراكبون الدائرون يمرون به. فأخذ برشاقتهم وهدوئهم، فما كان يتوقع شيئًا من هذا في قوم لا تنبئ حركاتهم العادية بشيء من الرشاقة أو الهدوء. وبحيلة بارعة من حيل الدّوارات، خبّت الخيل خببًا وارتدادًا، في توقيت محكم ونسق جميل. فكان كل حصان من هذه الخيل المطهمة يثب إلى الأمام، بينا يرتد زميله إلى الخلف، فطرب الفرسان لهذه الحركات أيما طرب، وأعجبوا أعمق الإعجاب بهذه الدوارة، التي لا تزال خير مسلاة في عصرنا هذا. وكان الراكبون أخلاطًا من أعمار مختلفة، فمنهم مَن لم يتجاوز السادسة من عمره، ومَن بلغ الستين، ومن تُنحصر سنُّهُ بين هاتين. وكان من العسير في بادئ الأمر أن تستبين إنسانًا بعينه، ولكن ما هي إلا هنيهة حتى استقرت عين صاحبنا على أجمل فتاة في الموكب الدائر.

ليست هي ذات المجول الفاتح اللون، والقبعة الفاتحة التي أثارت إعجابه أول الأمر، بل هي ذات الطيلسان الأسود، والرداء الرمادي، والقفاز الفاتح اللون.. كلا..

ولا هذه أيضًا.. بل التي تليها.. ذات الرداء القرمزي، والسترة الداكنة، والقبعة البنية، والقفاز البني.. هذه أجملهن لا مراء.

وما كاد هذا المستروح العابر يستقر على رأي، حتى أخذ يفحص فتاته المختارة، كلما مرقت في محيط ما يرى.. دون أن تشعر هي بغير لذة الركوب، فقد اشتمل عليها طرب، أنساها سنها وماضيها وملامحها.. بله متاعبها.. أما هو فكان منقبض النفس، كاسف البال، شأن الكثيرين في هذا العصر، فأبهجته رؤية الفتاة الصغيرة وهي تستمتع في نفس زمانه ومكانه، بسعادة لا تشبهها سعادة، وكأنها في الفردوس.

وكان أشد ما يخشاه، أن تحل تلك اللحظة التي يقرر فيها صاحب الدوّارة أن هذه المجموعة من الراكبين قد استنفدت حقها. فيقضي على هذا اللهو والمرح، فتسكن الآلة البخارية والخيل والمرايا والمزامير والطبول والصنج وما إلى ذلك. وجعل الشاب، وهو يتوجس من هذا الحدث، يرمق فتاته كلما عادت إلى الظهور، وينظر في غير اكتراث إلى ما يتراءى من أشباح بين مرات ظهورها.. ومن هذه الأشباح البنتان غير الجميلتين، والمرأة العجوز، والطفل، والشابان والعروسان، والرجل

المسن ذو الغليون الخزفي، والشاب المرح ذو الخاتم، والشابات الجالسات في العربة، والنجارون المتجولون.. وغير هؤلاء، فتعبرهم نظراته جميعًا حتى تستقر على فاتنته الريفية المختارة حين تمر أمامه. حقًّا، إنه لم يرَ طول حياته جمالًا فطريًّا أبرع من هذا الجمال.. وصار جمالها يزداد تغلغلًا في فؤاده كلما تراءت له، حتى حلت اللحظة التي يخشاها، فوقفت الدوّارة، وتنهدت الراكبات أسفًا.

ذهب إلى حيث قدّر نزولها. ولكنها لبثت في مقعدها. وشغلت المقاعد الشاغرة، فلا بد أنها تزمع دورة أخرى. فاقترب الشاب من حصانها، وسألها في ظرف ودعة:

أوجدتِ في الركوب بعض المتعة؟

كان من غير العسير أن يبدأ حديثه معها. فهي بطبيعتها غير متحفظة، وليس لديها من خبرة بشؤون الحياة تحملها على اصطناع التحفظ. فما هي إلا ملاطفة طفيفة من جانبه، حتى أجابت على أسئلته في صراحة وسعادة. أجابته أنها نزحت إلى ملشستر من قرية في السهل الكبير، وأن هذه أول مرة تشهد فيها دوّارة بخارية.. وأنها لا تدري كيف تصنع هذه الآلات العجيبة.. وأنها أتت إلى المدينة بدعوة من مسز هارنهام، لتدريبها علَّها تصلح خادمة، وأن مسز هارنهام هذه شابة كان اسمها قبل الزواج (مس إديث هويت) وكانت تقطن الريف قريبًا من كوخ هذه الفتاة. لذا فهي شديدة الحدب عليها، تقوم بنفسها على تعليمها. وهي الصديقة الوحيدة لهذه الفتاة. وليس للسيدة ولد، فاحتضنت الفتاة وآثرتها على الناس، وإن لم يرجع مقامها لديها إلى عهد بعيد. فسمحت لها بأن تفعل ما بدا لها، ومنحتها عطلة كلما أرادت ذلك. أما زوج هذه السيدة الشابة فمن تجّار النبيذ الأغنياء في المدينة، غير أن زوجته لا تحفل به كثيرًا. وكان منزله قريبًا من المكان الذي يتحادثان فيه. وقد أحبت الفتاة ملشستر، وآثرتها على الريف وعزلته، وستشتري لها قبعة جديدة تلبسها يوم الأحد القادم، تكلفها خمسة عشر شلنًا وتسعة بنسات.

ثم سألت صاحبها عن مكان إقامته، فأجابها أن يقيم في لندن.. تلك المدينة القديمة القاتمة، التي يعيش فيها مَن يستطيع العيش في قتامها، ويموت مَن لا يستطيع العيش في هذا القتام. وهو يأتي إلى (وسكس) مرتين أو ثلاثًا كل عام، لأداء عمل يتصل بمهنته. وأنه أتى من (ونتنسستر) أمس، وسيذهب إلى المقاطعة المجاورة بعد يوم أو يومين، وهو يؤثر الريف على لندن؛ لأن في الريف فتيات -مثلها- بارعات الحسن، موفورات الجمال.

عادت أداة اللهو إلى دورانها.. وبدأ شبح الشاب الوسيم يدور في عين الفتاة المرحة، كما يدور الميدان بأضوائه وحشده، وتدور المنازل من حوله، وتدور الدنيا كلها، وتنعكس دورتها في المرايا الدائرة عن يمينها، فتخال نفسها النقطة الثابتة، التي يدور من حولها عالم مائج شاحب مثير، يتبلج فيه ذلك الشاب الذي كان يحاورها أخيرًا وتحاوره. فصارت كلما اقتربت من نصف الدائرة القريب منه، بادلته النظرات والبسمات، وتلك الإيماءة التي لا تعني شيئًا خطيرًا في البداية، ولكنها طالما أدت إلى الحب والجوى، واللقاء والفراق، والوفاء والنسل، والشقاء والرضى، والاستسلام واليأس.

ولما تباطأ سير الخيل مرة أخرى، ذهب إليها الشاب، وأشار عليها أن تدور مرة أخرى: «سحقًا للأجر، سأجازف وأدفعه أنا».

فضحكت حتى اغرورقت عيناها بالدموع.

فسألها: «ولماذا تضحكين يا عزيزتي؟».

فأجابت: «لأن في وجاهتك ودماثتك، ما ينبئ عن وفرة مالك.. وأنت إنما تمزح»، فضحك الشاب كما ضحكت، وأخرج نقوده في لباقة وظرف، فاستطاعت الفتاة أن تدور دورة أخرى.

ووقف هو باسمًا وسط حشد شتى ألوانه، ممسكًا بغليونه، مرتديًا سترة ضخمة، وقبعة عريضة، فلم يكن يدور بخلد أحد من الناس أنه مستر شارلس برادفورد راي، رجل القانون الذي تعلم في (ونتنسستر) وقيد اسمه في (لنكولن إن)[4] ، وأنه يتنقل الآن مع المحكمة في جولتها الغربية، وأنه إنما تخلف في ونتنسستر ليفصل في بعض القضايا الصغيرة، قبل أن يلحق بزملائه في حاضرة المقاطعة المجاورة.

* * *

كان يشرف على الميدان من طرفه الأقصى ذلك المنزل الذي أشارت إليه الفتاة. وهو منزل يتسم بالفخامة والضخامة، ولكل طبقة منه عدد كبير من النوافذ. وجلست سيدة تتراوح عمرها بين الثامنة والعشرين والثلاثين، تطل من نافذة حجرة استقبال واسعة في الطبقة الأولى، ولم تكن الستائر قد أُسدلت بعد. وكانت السيدة تتأمل وهي شاردة اللب، ذلك المنظر البهيج في خارج المنزل، وقد اعتمد خدها على يدها. ولم تكن الحجرة مضاءةً، ولكن ما تسرب إليها من ضوء الساحة، قد كشف عن وجه السيدة، وهي امرأة تشوقك روحها، أكثر مما يبهرك جمالها، كثيرة التأمل حساسة الشفتين.

ودلف إلى الحجرة رجل أخذ يتجول ويتلكأ، ثم تقدم إليها وقال: «أوه.. إديث.. لم أكن أراكِ.. لماذا تجلسين هنا في الظلام؟».

فأجابت في صوت فاتر: «أنا أتفرج على المولد».

- «إنه لضجة مزعجة تتكرر كل عام.. ليتها لا تكون».

- «إني أحب هذه الضجة».

- «على أي حال.. الأذواق تختلف».

ونظر من النافذة معها برهة، يجاملها بهذه المشاركة، ثم انصرف من حيث أقبل، ودقت السيدة الجرس بعد بضع دقائق.

- «ألم تحضر آنا؟».

- «لا يا سيدتي».

- «كان ينبغي أن تكون قد عادت.. لقد سمحتُ لها بالتغيب مدة عشر دقائق فقط».

فقالت الخادم في نجابة وخبث: «هل أذهب للبحث عنها يا سيدتي؟».

- «كلا.. لا داعي.. (آنا) بنت طيبة، وستحضر في الحال».

ولكن ما كادت الخادم تنصرف، حتى نهضت مسز هارنهام، وذهبت إلى حجرتها، وارتدت معطفها وقبعتها، وهبطت الدرج، فوجدت زوجها وقالت له:

- «أريد أن أشهد المولد. وأبحث عن (آنا). لقد أخذتُ على عاتقي أن أرعاها، ويجب أن أطمئن عليها؛ لأنها تأخرت.. فهل تذهب معي؟».

- «إنها بخير، لقد رأيتها الآن جالسة فوق أحد تلك الأشياء الدائرة، تتحدث إلى فتى أحلامها. على أني مستعد أن أذهب معكِ إذا شئتِ. وإن كنت أفضل أن أسير مائة ميل في اتجاه آخر، على أن أسير خطوات إلى المولد».

- «إذَنْ لا داعي.. فلن يضيرني أن أذهب وحدي».

وغادرت المنزل، وتوارت في الجموع التي غص بها الميدان. وسرعان ما رأت (آنا) جالسة على الحصان الدائر.. وما إن وقف، حتى تقدمت إليها مسز هارنهام وهي تقول في قسوة: «أيبلغ بك الطيش هذا المبلغ يا آنا! إني لم أسمح لكِ بالتغيب أكثر من عشر دقائق».

فاضطربت آنا واصفر وجهها، وتقدم إليها شاب، فساعدها على النزول، وقال في أدب: «أرجوكِ ألا تعنفيها، فأنا سبب تأخيرها.. راعتني رشاقتها وهي على الحصان، فأغريتها بدورة أخرى.. فاطمئني عليها».

«إذَنْ سأتركها وديعة بين يديك»، كذلك قالت، واستدارت لتعود من حيث أتت.

ولكن العودة لم تكن ميسورة، فقد هرع الحشد ليرى شيئًا خلفهم وانساقت هي مع الحشد، فوجدت نفسها مضغوطة إلى صاحب (آنا) لا تستطيع حراكًا، واقترب وجهها من وجهه، وهفت أنفاسه على وجهها ووجه (آنا). ولم يستطيعا أن يقابلا هذه الصدفة بغير الابتسام، ووقفا صامتين مستسلمين، ينتظران أن يخف الزحام.. ثم أحست مسز هارنهام بيد رجل تمسك بأصابعها، وأدركت من نظرة الشاب أنها يده، كما أدركت من موضع الفتاة منه أن يحسبها يد فتاته الحبيبة آنا.. فما الذي أغراها بأن تتركه سادرًا في خطئه، إنها لا تعلم. أما هو فلم يقنع بأن أمسك يدها، بل أخذ يداعبها، ودس إصبعيه في داخل قفازها ليلمس كفها.. واستمر الحال على هذا المنوال حتى خف الزحام.. ولكن مسز هارنهام لم تستطع الانصراف قبل مرور بضع دقائق.

وجعلت تسائل في نفسها في أثناء عودتها: كيف تعارفا.. إني لأعجب. (آنا) ساذجة جدًّا.. وهو.. في منتهى الخبث والظرف.

تأثرت السيدة أيما تأثر بأدب هذا الشاب وصوته ورقة يده، حتى أنها لم تدخل المنزل، بل قفلت راجعة إلى حيث تشهد الحبيبين من وراء حجاب وهي تقول لنفسها، وكانت أقل خفة من آنا: «للفتاة كل العذر في استدراجه، بل لها كل العذر في السعي إلى معرفته، فهو آية في الظرف والجاذبية وعيناه آية في السحر والجمال»، ثم ذكرت أنه يصغرها بعدة سنين، فتنهدت دون ما سبب تعرفه.

وانصرف الحبيبان عن الدوّارة البخارية، واتجها صوب باب مسز هارنهام، وسمعت بأذنها قول الشاب لفتاته أنه سيسير في صحبتها حتى المنزل.. لقد وجدت آنا عاشقًا إذَنْ، عاشقًا يبدو عليه الإخلاص الشديد، والحب العميق. فأثر ذلك في مسز هارنهام تأثيرًا بالغًا. وسار الحبيبان نحو المنزل في طريق خاو وحجبهما ظل حائط برهة من الزمن، ثم افترقا، فذهبت (آنا) إلى الباب وعاد صاحبها إلى الميدان.

فلحقت مسز هارنهام بخادمتها وقالت: «آنا.. كنت أرقبكما.. وهذا الشاب قبَّلكِ عند الفراق.. أنا واثقة».

فتلعثمت آنا وهي تقول: «لقد قال إنه إذا لم يمنعني مانع، فهذه القبلة لن تضيرني شيئًا، وسوف تسعده أبدًا»..

- «آه.. لقد فهمت.. وهل هذه أول مرة تلقينه؟».

- «نعم يا سيدتي».

- «ولكن لا بد أنك ذكرتِ له اسمكِ، وكل شأن من شؤونكِ».

- «لقد طلب مني ذلك».

- «ولكن هل أخبركِ باسمه؟».

فصاحت آنا صيحة المنتصر: «نعم يا سيدتي: اسمه (شارلس برادفورد) من لندن»، فقالت السيدة وقد حنا قلبها على الشاب، رغم العرف والتقاليد: «إذا كان رجلًا جديرًا بالاحترام، فلا بأس عليكِ من معرفته. ولكن إذا حاول أن يجدد علاقته بكِ، كان لي رأي آخر. ليت شعري.. كيف يتأتى لفتاة ريفية مثلك، قدمت ملشستر في هذا الشهر فقط، ولم ترَ من قبل رجلًا ذا سترة سوداء. كيف يتأتى لها أن تتصبي شابًّا لندنيًّا كهذا الشاب؟».

فقالت آنا وهي تضطرب: «لم أفعل شيئًا من هذا يا سيدتي».

ولما خلت مسز هارنهام إلى نفسها أخذت تفكر في صاحب (آنا) كم بدا لها شابًّا مهذبًا راقيًا، وكم سحرها غزله وهي يعبث بيدها... ترى ماذا أعجبه في هذه البنت؟

وفي الصباح التالي ذهبت تلك المرأة العاطفية (إديث هارنهام)، لتؤدي صلاة في كاتدرائية ملشستر، فرأت وهي تجتاز الحقول وما غشيها من الضباب، ذلك الشاب الذي أرقها في الليلة الماضية... وكان يتأمل بناء الكاتدرائية الشامخ وما كادت تستوي في مجلسها، حتى أقبل، وجلس على مقعد يواجه مقعدها.

لم يخصها بلفتة أو بسمة، وإن ظلت عيناها ترمقانه، وأخذ عليها العجب كل سبيل: ترى ماذا هيمه بالخادمة الصغيرة الساذجة البلهاء؟

وكانت السيدة وخادمتها لا تدريان شيئًا عن فتى آخر الزمان، وإلا لأقصرتا عن العجب. فها هو ذا (راي) يتلفت حوله برهة، ثم يغادر المكان فجأة، دون أن ينتظر انتهاء الصلاة. فغاض إقبال المرأة الحساسة على الصلاة. ليتها تزوجت من لندني يحذق أفانين الغزل، كما يحذقها هذا الشاب الذي داعب يدها.. يحسبها يد فتاة أخرى».

وكان جدول القضايا قصيرًا، لا يشغل المحكمة إلا بضع ساعات. ولم يكن (لراي) شأن بالجلسات التي تعقد في (كاستر بردج) حاضرة المقاطعة التي يتوجه إليها القضاة بعد هذه المقاطعة في جولتهم الغربية. ولا يبدأ العمل في المدينة التي تليها إلا يوم الإثنين القادم، ولا تبدأ المحاكمات إلا في صباح الثلاثاء. ولو سارت الأمور سيرتها الطبيعية، لبلغ (راي) تلك المدينة الأخيرة بعد ظهر الإثنين. ولكننا لا نراه بها ظهر الأربعاء، وقد ارتدى عطافه، وتوَّج رأسه بشعره المستعار الأشيب، الذي جدل على أحسن نسق للفن الأشوري. ونرى الضفائر تتطاير وتتماوج من خلفه، وهو يحث الخطى في الطريق العام بعد أن غادر منزله. ودخل المحكمة، وإن لم يكن له عمل بها، وجلس إلى المائدة الزرقاء في قاعة المحكمة يصلح أقلامه، ولبه شارد عن القضية المنظورة.. كان يفكر في عمل أتاه عن غير عمد، وكان منذ أسبوع يظن نفسه عاجزًا عن إتيانه.. وأسلمه تفكيره إلى شعور حزين مقلق.

فقد قابل الفتاة الريفية الجميلة في اليوم التالي للمولد، وسار معها خارج المدينة إلى حصون ملشستر القديمة.. ولبث في ملشستر طوال أيام الأحد والإثنين والثلاثاء شغفًا وهيامًا بهذه الفتاة.. واستطاع أن يغريها بالسير معه ومقابلته ست مرات أو سبعًا في أثناء هذه الفترة، وصفوة ما حدث أنه استطاع اقتناصها روحًا وجسدًا.

فكان يدور في خلده أن العزلة التي ركن إليها أخيرًا في لندن، هي التي أدت بعواطفه إلى هذا الانطلاق الطائش، نحو فتاة مسكينة ساذجة، جاهلة بشؤون الحياة، أسلمته أمرها منذ اللحظة الأولى من غير ما تحفظ أو حذر، وكان يعض بنان الندم؛ لأنه عبث بقلبها إشباعًا لنزوة عابرة. ويرجو ألا يكون قد طمس نور حياتها إلى الأبد.

سألته ضارعة أن يعود إليها، وتوسلت إليه باكية. فوعدها.. وهو ينوي إنجاز ما وعد.. فهو لا يستطيع أن يتخلى عنها الآن.

وإذا كان من طبيعة مثل هذه العلاقات أن تحرج وتربك، فإن بينه وبين الفتاة التي ارتكب معها هذه الحماقة مسافة مائة ميل. وهي مسافة تبدو لعقلها المحدود كأنها ألف ميل، فهي إذَنْ بعيدة عن أن تفسد حياته أو تحطم مستقبله.

وفي الوقت ذاته قد يؤدي تفكيره في حبها الساذج إلى أثر عكسي، فينصرف عن حياة العبث في المدينة، ويقبل على ما تتطلبه حياتها من جد.. وسيذهب إلى ملشستر في الجولات الغربية ثلاث مرات أو أربعًا، فيستطيع في هذه الفترات أن يلقاها.

وقد ذكر لآنا في نزوته العاطفية، ذلك الاسم الذي أشرنا إليه، ولم يكُ يدري حينذاك أن علاقته بها ستمضي إلى هذا الأمد. ولم يعن بتصحيح عنوانه فيما بعد. غير أنه شعر عند رحيله، أن عليه أن يعطيها عنوان بائع ورق يقطن قريبًا من منزله، لترسل إليه خطاباتها، وتكتب على الغلاف حرفي (ش) و(ب) وهما الحرفان الأولان لاسمه.

ولما حان موعد الأوبة عاد إلى مسكنه بلندن، وعرج في طريقه على ملشستر، وقضى بضع ساعات مع طفلته الفاتنة البريئة... (آنا). وسارت أيامه في لندن على نسق رتيب ممل. وأحس كأنما غشي نفسه ضباب قاتم، فعزله عن العالم بأسره. وكلما أشعل مصباح الغاز ليقرأ أو يكتب أحس بأنه في موقف غير طبيعي، فرنا إلى النور، واستغرق مفكرًا في هذه الفتاة الواثقة به في ملشستر. وكلما برح به الوجه الأحمق، هرع إلى حرم المحكمة المقدس المعتم، ودفع بمرفقه بعض المحامين الحديثين، الذين يرتدون عطافًا كعطافه، وليس ثم ما يتطلب حضورهم أو حضوره، وشق طريقه إلى إحدى القاعات المزدحمة، حيث تنظر قضية مثيرة، وكأن له بها شأنًا، وإن كان الضباط الواقفون بباب القاعة يعلمون حق العلم أن هذه القضايا لا تمتُّ إليه بسبب، إلا بقدر ما تمتُّ به إلى أولئك القوم الخاملين، الذين يقفون بباب المحكمة الخارجي منذ الثامنة صباحًا، دون ما كلل أو ملل.. لأنهم -كهذا السيد- يترقبون ما تتمخض عنه الأيام. غير أن هذا السيد لا يهدف إلى شيء من غشيان المحاكم، إلا أن يستروح بأن يرى هذا البون الشاسع بين غلظة المتقاضين وبين آنا.. اليانعة الوادعة التي تهفو على الروح كما يهفو النسيم.

ومن عجب ألا تكتب إليه هذه الفتاة الفلاحة حتى الآن، مع أنه أشار عليها بالكتابة إليه إذا شاءت.. ولا تستطيع فتاة في سنها أن تكون كتومًا إلى هذا الحد في ظرف كهذا الظرف. وأخيرًا أرسل إليها كتابًا موجزًا، يرجوها فيه أن تكتب إليه، فلم يصل رد برجع البريد.. بل سلمه بائع الورق بعد يومين خطابًا مكتوبًا بخط نسائي أنيق، يحمل طابع البريد في ملشستر.

وكان وصول الخطاب كافيًا لإشباع عاطفته وخياله، فلم يتعجل فتح الرسالة المقدسة. ولم يبدأ قراءتها إلا بعد ساعة من وصولها. وكان يحسبها عابقة بالذكريات الحبيبة، والضراعات الرقيقة. فلما مد قدمه إلى المدفأة وفض الغلاف، أخذه العجب والإعجاب. فهذه رسالة لا إسراف فيها ولا ابتذال، ولم تصله قط رسالة من امرأة أمتع من هذه الرسالة. صحيحٌ أن اللغة بسيطة والأفكار تافهة، غير أن روحها الهادئة الرزينة تنم عن فتاة طاهرة تعتز بأنوثتها ولا تبتذل كرامتها، فأعاد قراءتها مرتين، وكانت تقع في أربع صفحات مليئة، وبها بضعة أسطر مكتوبة بالطول، على نمط كان مألوفًا في الماضي.. أما الورق فعادي، لا هو بالملون ولا بالشديد النعومة. ولكن ما لنا ولهذه السفاسف؟ لقد جاءته من قبل خطابات من فتيات أرقى الأوساط، غير أن هذا الخطاب قد فاقها جميعًا في رقته وعذوبته.

إنه لا يستطيع أن يشير إلى جملة بعينها ويقول: ما أروع هذه العبارة! ولكنه أخذ بروعة الخطاب في مجموعه، فاستولى على كل جارحة فيه. ولم يَبْدُ في الخطاب ما ينم عن إحساسها بحقها عليه غير رجائها بأن يرسل إليها كتابًا، أو يعود إليها سريعًا.

وكان آخر ما يدور في خلد (راي) في ظرف كهذا، أن يعاود الكتابة إليها. ولكنه أرسل إليها سطرًا أو سطرين فيهما عطف وتشجيع، وأمهرهما باسمه المستعار، وطلب إليها أن تنفحه برسالة أخرى.. ووعدها في كلمة فرحة مستبشرة أن يبذل وسعه لزيارتها في وقت قريب، وأنه سوف يذكر دائمًا ما بلغ كل منهما من نفس صاحبه.

* * *

ولنعد الآن إلى اللحظة التي تسلمت فيها (آنا) كتاب (راي) في ملشستر. لقد وضعه الساعي في يدها في دورته الصباحية. وما إن تسلمته، حتى احمر وجهها بأسره، وجعلت تقلب الكتاب على وجهيه، وتتساءل: «أهذا الكتاب لي أنا؟»، فقال الساعي وقد افتر ثغره عن ابتسامة، فقد فهم طبيعة الخطاب، وسبب الاضطراب:

«نعم.. ألا ترين العنوان».

«نعم.. طبعًا.. إنه لي»، كذلك أجابت (آنا) وهي تنظر إلى الخطاب، وقد كبتت ضحكتها في جهد جهيد، وازداد وجهها حمرة.

وظلت على ارتباكها بعد انصراف ساعي البريد.. ففضت الغلاف، وقبَّلت ما بداخله، ودست الكتاب في جيبها.. واستغرقت في التفكير.. حتى اغرورقت عيناها بالدموع. ولم تمض بضع دقائق حتى حملت فنجان الشاي إلى (مسز هارنهام) في حجرة نومها.. فنظرت إليها السيدة وقالت: «كم أنت متجهمة الوجه هذا الصباح يا آنا! ما خطبكِ؟».

«لست متجهمة.. بل أنا مسرورة.. ولكني..»، وسكتت هنيهة حتى لا يغص صوتها بنبرة البكاء.

فسألتها سيدتها: «ماذا تقولين؟».

- «جاءني خطاب.. ولكن ما فائدته لي وأنا لا أقرأ حرفًا؟».

- «كيف؟ سأقرؤه لكِ أيتها الطفلة إذا أردتِ».

فتمتمت آنا: «إنه خطاب من إنسان معين، ولا أحب أن يطلع غيري عليه».

- «لن أخبر بفحواه أحدًا.. أهو من ذلك الشاب؟».

فأجابت (آنا)، وهي تخرج الخطاب من جيبها في بطء:

- «هو منه على ما أظن.. فهل تقرئينه يا سيدتي؟».

هذا سر ما أصاب (آنا) من ارتباك واضطراب، فهي أمية لا تقرأ ولا تكتب، نشأت مع عمتها في مزرعة بالسهل العظيم في وسكس الوسطى، ولم تكُ هناك مدرسة بالقرب من المزرعة -حتى مسافة ميلين منها- وإن كنا في عصر انتشار التعليم الشعبي.

وكانت عمتها جاهلةً، وليس من أحد يُعنى بأمر (آنا) وتعليمها. وإن كانت عمتها قد أحسنت طعامها وكساءها ومعاملتها.

ومنذ أن قدمت ملشستر، لقيت اهتمامًا وحنوًّا من سيدتها مسز هارنهام، فعلمتها سيدتها كيف تتكلم بلا خطأ. وأظهرت (آنا) استعدادًا كبيرًا في هذا الصدد، شأن الكثيرات من الأميات، وسرعان ما حذقت العبارات التي ترددها سيدتها.. وكذلك أحضرت لها سيدتها كتابًا للتهجي وكراسة للخط، وبدأت تعلمها القراءة والكتابة. بيد أنها كانت أكثر تخلفًا في هذه الدراسة عنها في تعلم أساليب الحديث. كانت هذه قصة آنا حتى جاءها الخطاب.

وبدت في عيني السيدة السوداوين النجلاوين أمارات الاهتمام بفحوى الخطاب، وإن حاولت أن تقرأه قراءة آلية، متخذة موقف المترجم فحسب، إلى أن أتت عليه.

وفيه يرجو الكاتب مداعبًا أن يصله رد رقيق.

فقالت آنا لسيدتها في تلهف: «هل تتفضلين عليَّ بكتابة رد جميل يا سيدتي العزيزة؟ أنا لا أحتمل أن يتكشف له جهلي. ولو عرف لساخت بي الأرض خزيًا وعارًا».

وأوحت بعض عبارات الخطاب إلى مسز هارنهام بأن توجه أسئلة إلى خادمتها، وأكدت الردود ما خامرها من شكوك. فتولاها القلق على هذه الفتاة التي عقدت كل سعادتها ومستقبلها بهذه العلاقة الفجة. وعتبت على نفسها؛ لأنها لم تضع حدًّا لهذا الغزل، الذي عاد بأوخم العواقب على بنت صغيرة مسكينة تعيش في حماها... وإن كانت حينما رأتهما لأول مرة قد أحست بأنها عاجزة عن قتل الحب الوليد، وهو لا يزال في المهد.. على أن الندم لا يُجدي شيئًا، والأجدر بولية آنا -وليس لها من ولية سواها- أن تساعدها ما وسعتها المساعدة. فلما ضرعت إليها الخادم ضراعة الملهوف أن تنشئ لها الرد على كتاب فتاها اللندني، وأن تكتبه نفسها، شعرت أن من واجبها أن تقبل، حفاظًا على جذوة الحب أن تخمد في صدره. ولولا ذلك لأشارت عليها - في غالب الظن- بأن تلجأ إلى الطباخة لتكتب ما تمليه عليها.

وعلى هذا أُعد رد رقيق دُبِّجَ بقلم (إديث هارنهام).. هو ذلك الخطاب الذي تسلمه راي فأثار عجبه. وقد كُتب في حضور آنا، وعلى ورقها المتواضع. واشتركت في صياغة بعض عباراته. غير أن إديث هارنهام هي التي نفخت فيه الحياة والروح والشخصية جميعًا.

ثم قالت لخادمتها: «ألا تكتبين اسمكِ على الأقل؟ إنكِ تستطيعين ذلك الآن»، فقالت (آنا) وقد تولاها الذعر: «كلا يا سيدتي. إني أكتبه رديئًا.. وأخشى أن يحتقرني وينصرف عني».

رجته في أسلوب لبق أن يكتب ردًّا، واشتمل الخطاب على قدر من البراعة والكياسة يكفل تحقيق هذا الأمل. فأرسل إليها ردًّا يعرف فيه عن شديد غبطته بما تكتبه إليه، ويرجوها أن تنفحه بخطاب كل أسبوع.

فتكرر تحرير الخطابات، وكانت تتعاون (آنا) وسيدتها. ولبثتا على هذه الحال عدة أسابيع متتالية. وكانت (إديث) تشير بما ينبغي أن يكتب، ثم تكتبه والفتاة واقفة إلى جانبها. فإذا جاء الرد قرأته إديث، وعلقت عليه، ووقفت (آنا) إلى جانبها تصغي إلى ما تقول.

وأوغلت مسز هارنهام في السهر ذات مساء في الشتاء، بعد أن أرسل الخطاب السادس، وأسلمت نفسها لتفكير متصل مسترسل لا يحفل بالزمن أو بالطقس.

وكان مبعث هذا التفكير أمرًا أتته في ذلك اليوم.

فقد ذهبت آنا إلى كوخها في السهل لأول مرة بعد تعرفها براي، لتقضي ليلة أو ليلتين مع صديقاتها. وفي أثناء غيابها، جاء -على غير انتظار- خطاب من (راي)، ردت عليه إديث من تلقاء نفسها، واستوحت في كتابته ما يجيش في أعماق قلبها دون انتظار معونة من خادمتها. ما كان أسعدها وهي تكتب إليه كلمات لن يطلع عليه سواه، فأطلقت العنان لعواطفها وبثت ذات نفسها في الخطاب، واستشعرت بعد كتابته سعادة لا تشبهها سعادة. ولكن ما مصدر هذه السعادة؟

كانت إديث هارنهام تعيش في عزلة، ووافقت على كره منها وهي في السابعة والعشرين، أن تتزوج من تاجر نبيذ تجاوز دور الشباب، عملًا بنصيحة الأمهات الإنجليزيات، اللاتي يؤثرن الزواج مهما تكن سوءاته، على حياة العذارى مهما تهيأ لها من حرية وعزة وفراغ. غير أنها أدركت خطأها فيما بعد. فهي لا تزال بعد الزواج امرأة لم تهتز أعماق نفسها لشيء مما لقيت.

وقد تبين لها الآن في غير لبس أو غموض، أن روحها قد تعلقت بأهداب رجل لا يكاد يعرف عنها غير الاسم، استهوتها أولى الأمر نظراته ورنين كلماته ورقيق ملمسه. فكانت هذه هي البذرة.. ثم كتب الخطاب تلو الخطاب، وقُرئت ردود رقيقة تلو ردود رقيقة، فنما الغرس، وأينعت العاطفة، فتجاوبت النفسان.. وتبادل الحب، فشبت في نفسها تدريجيًّا عاطفة تجاوب عاطفته. وكان أشد ما راع المرأة -وإن لم تصرح لنفسها بذلك- أنه استطاع أن يهوى امرأة أخرى في يومين، فاستسلمت روحًا وجسدًا.

صاغت إديث عواطفها المشبوبة المكبوتة في لفظ لا يتجاوز المقطع الواحد، إمعانًا منها في التخفي، ووقَّعت الخطاب بغير توقيعها، لتطرب آنا الساذجة، التي لا عهد لها بهذه الأخيلة الجميلة التي سبت قلبه، ولا قبل لها بتصورها حتى إذا تعلمت الكتابة. وأدركت (إديث) أن الشاب اللندني، إنما يجاوب عاطفتها الحارة المنبثة في رسائلها، ولا أثر في نفسه لما تمليه (آنا) من جمل قليلة بين الحين والحين.

لم تدرِ (آنا) شيئًا عما كتب في غيابها. ولكنها لم تكد تعود في الصباح التالي، حتى ذكرت أنها تريد لقاء حبيبها لأمر عاجل، ورجت مسز هارنهام أن تطلب إليه الحضور.

ونمَّ مظهرها عن حالة عجيبة من القلق، لم تَخْفَ على مسز هارنهام، وأخيرًا أفصحت عن نفسها بفيض مدرار من الدمع، واعترفت وهي جاثيةٌ إلى جانب ركبتي إديث، أن صلتها بحبيبها قد أدت إلى شيء لا يحسن السكوت عليه.

وكانت (إديث هارنهام) كريمة النفس لا يخطر ببالها أن تتخلى عن (آنا) في هذه اللحظة الحرجة... وقد أغفلت نفسها وقلبها إغفالًا لا تستطيعه أي امرأة طبيعية، مهما يكن استعدادها لحماية خلصائها. وكان قد مضى وقت وجيز على خطابها لراي، بيد أنها اضطرت أن تثني عليه بخطاب، أشارت فيه إشارة واضحة إلى ما حدث، ولكن في أسلوب كيس لبق.

وبعث (راي) برد قصير سريع، ذكر فيه أنه مهتم جد الاهتمام بالأمر، وأن من واجبه أن يهرع لرؤيتها فورًا.

غير أن الفتاة جاءت بعد أسبوع إلى حجرة سيدتها، وفي يدها خطاب آخر قرأته سيدتها وفيه ينبئها حبيبها أن وقته لم يتسع للحضور. فتفطر قلب (آنا) حزنًا وجزعًا، ولكنها -عملًا بنصيحة سيدتها- تجنبت أن توجه إليه أي لون من اللوم القارص، أو التعنيف اللاذع... كما تفعل الفتيات عادة في مثل هذه الظروف... فثمة اعتبار يجب أن يسبق جميع الاعتبارات... هو الإبقاء على شعلة الحب المقدسة في صدره... ومضت إديث في هذه السبيل إلى أبعد حد، فرجته بلسان خادمتها ألا يفزعه هذا النبأ، وألا يكلف نفسه عناء الحضور العاجل. فليس أحب إليها من أن تخفف أعباءه، وتزيل كل عقبة تعترض سبيل أعماله الجليلة، وإنما أخبرته بهذا الحادث ليحيط به علمًا. وله بعد ذلك أن ينساه إذا شاء.. وما عليه إلا أن يواصل كتاباته الرقيقة العذبة، وأن يرجئ التفكير في هذا الأمر، حتى يعود إليها في جولة الربيع، حين يكون الوقت أنسب وأفسح.

ولعل آنا لم تكن مرتاحة في قرارة نفسها لهذه العبارات السمحة الكريمة، غير أنها أذعنت لرأي سيدتها.

«كل ما أريده هو هذه الرقة التي تفيض بها خطاباتكِ يا سيدتي العزيزة المحبوبة، والتي ليس لي بها قِبَلٌ مهما حاولت... وإن كنت أقصد إلى نفس المعنى الذي تكتبين، وأشعر حينما تفرغين من كتابة الخطاب أنكِ عبَّرتِ عن ذات نفسي أتم تعبير».

وأرسل الخطاب، وأُخلي بين السيدة ونفسها، فمالت على ظهر الكرسي، وبكت وهي تغمغم: «ليتني أحمل ابنه في أحشائي.. ليته كان!! ولكن كيف أسف إلى هذا الحد، فتساورني هذه الفكرة الدنيئة؟».

* * *

وأثَّر الخطاب في (راي) تأثيرًا بالغًا. وكان تسامحها غير المنتظر أفعل في نفسه من وقع الخبر ذاته. فالخطاب لا تعنيف به ولا تبكيت.. وكل سطر من سطوره يفيض إخلاصًا وتضحية.. فبهرته هذه النبالة التي لم يكُ يحلم بوجودها في بنات حواء. قال وهو يرتجف من فرط التأثر: «غفر الله لي.. لقد كنت نذلًا حقيرًا.. وما كنت أدري أنها بهذا القدر من السمو والنبل»، وأرسل إليها في الحال خطابًا مطمئنًا، صارحها فيه بأنه لن يتخلى عنها بطبيعة الحال، وأنه سوف يعد لها منزلًا في مكان ما، وعليها أن تبقى مؤقتًا لدى سيدتها، ما سمحت لها السيدة بذلك.

ولكن أصابها في بيت سيدتها ما رنّق صفو حياتها.. وسواء أسمع السيد بأنباء (آنا) أم لم يسمع، فإنه أمرها بمغادرة المنزل، رغم رجاء زوجته وتوسلها، فرأت أن تعود إلى كوخها في السهل.. وتشاورت السيدة والخادم في أمر تحرير الخطابات. فالفتاة لا تستطيع أن تحررها بنفسها، وبات من غير الميسور أن تشتركا في تحرير الخطابات كما كانتا تفعلان، لذلك رجت الخادم سيدتها، فليس لها من صديقة محترمة سواها، أن تتسلم خطاباتها وترد عليها توًّا، وترسلها إليها فيما بعد، فتقرأها لها إحدى جاراتها، إذا تهيأت لها جارة تثق بها.. ثم ارتحلت (آنا) وصندوقها إلى السهل.

وهكذا وجدت (إديث) نفسها في مركز عجيب، فهي مضطرة أن تراسل رجلًا غير زوجها، دون رقابة من المرأة ذات الشأن، وأن تنتحل شخصية الزوجة في وصف حالة مادية جسدية لم تستشعرها على الإطلاق. وأن تبعث بهذا الوصف إلى رجل تورطت معه في علاقة عاطفية من إثر المراسلة، أدت إلى نوع خفي من الميل، إن يكن خياليًّا غامضًا فهو قوي قاهر مع ذلك. فأخذت تفض كل غلاف وتقرأ كل خطاب وكأنما هي المعنية بما جاء فيه، ثم ترد عليه من فورها، بما يمليه قلبها، لا بوحي من شخص آخر.

ونعمت إديث الحساسة بنشوة الخيال في غياب الفتاة، وأثار فيها هذا الغرام الذي وكلت برعايته، فيضًا دفاقًا من العاطفة لا يبلغ شأوه فيض. وكانت أول الأمر ترسل كل خطاب يصلها إلى (آنا) وترسل معه مسودة الرد الذي كتبته. بيد أنها أخذت تجتزئ من هذه المسودات بأيسر قدر، وكفت عن إرسال كثير من الكتب المتبادلة.

وكان (راي) شابًّا شهوانيًّا مسارعًا إلى تلبية نداء الحاسة متأثرًا -إلى حد ما- بما يشوب عصره من نزوات ومزالق، غير أن خلقه كان ينطوي في جوهره على شيء من الأمانة والاستقامة. وقد أحس بحنو إلى الفتاة الريفية، يزداد عمقًا كلما آنس قدرتها على وصف أعمق أحاسيسها في أبسط الألفاظ. ففكر وتردد.. وصمم آخر الأمر على استشارة أخته، وكانت آنسة تكبره بعض الشيء.. رقيقة العاطفة، نبيلة القصد. أفضى إليها بسره، وعرض عليها خطابات (آنا)، فقالت وهي تتأملها: «يبدو أن الفتاة على حظ من التعليم لا بأس به.. وهي ذكية الفؤاد، تفصح عن مشاعرها في أسلوب مطبوع».

- «نعم. إن أسلوبها غاية في الرقة.. أليس كذلك؟ بارك الله في هذه المدارس الأولية».

- «إنها تستهوي القلب... مسكينة».

وكان من أثر هذا الحديث أن كتب إليها راي -وإن لم تشر عليه أخته بذلك في صراحة- ووقع الخطاب باسمه الكامل.. ولم يكن يدور في خاطر أحد أنه يفعل ذلك..

ذكر لها أنه لا يستطيع العيش من دونها. وأنه قادم إليها في الربيع ليطمئنها على مستقبلها، فسيبني بها. فهُرعت مسز هارنهام إلى كوخ (آنا) في السهل العظيم، تحمل نبأ قبوله الصريح لما يتطلبه الموقف. فقفزت آنا من فرط الفرح، كأنها الطفلة الصغيرة، وذكرت لسيدتها رأيها التافه الساذج فيما يكون عليه الرد، فلما عادت السيدة إلى المدينة أنفذت هذا الرأي، ونفخت في الخطاب من روحها قوة وحرارة.

ولما ألقت القلم من يدها، همست لنفسها وهي تتألم: «وا أسفاه! (آنا) تلك الفتاة المسكينة الطيبة البلهاء... ليس لديها عقل تعرف به قدر هذا الشاب. وأنى لها ذلك! أما أنا.. فلست أحمل طفله».

ومضت المكاتبات بعد ذلك أربعة شهور، وحل شهر فبراير، فوصل كتاب من راي، أشار فيه إلى مركزه وآماله. قال إنه أول ما عرض عليها الزواج، كان ينوي اعتزال مهنته التي لم تدرّ عليه حتى الآن سوى ربح ضئيل، ولكن ما يشيع في خطاباتها الفطرية الحلوة من ذكاء وعاطفة -وهو ما لم يدر له ببال- قد صرفه عن هذه الفكرة القاتمة، وإنه لعلى ثقة من أن مواهبها واستعدادها، وشيء من الدربة على التقاليد الاجتماعية السائدة في لندن، يقوم هو بها أو تقوم بها وصيفة، ستخلق منها الزوجة المثلى لصاحب مهنة محترمة، ولو سما إلى مركز كبير القضاة. فكم من زوجة لهؤلاء لم تكن سيدة مطبوعة، كالسيدة المطبوعة التي تنم عنها كتب (آنا)، فهمهمت (مسز هارنهام) وقالت: «يا له من مسكين».

وزادت شقوتها طوفانا، بقدر ما زاد قلبها افتتانًا... فهي التي دفعت به إلى هذه الهوة السحيقة.. دفعت به إلى زواج يحطمه ويقضي على آماله. غير أنها، رحمة بآنا، لا تقدم على عمل يعوق الزواج، وستأتي (آنا) إلى ملشستر هذا الأسبوع، ولكن السيدة لا تستطيع أن تطلع الفتاة على رد رقيق أتاها من فتاها.. ففيه حديث طويل عن الشخصية الثانية التي اغتصبت مكان الشخصية الأولى.

وحضرت آنا، فانفردت بها سيدتها في حجرتها الخاصة. وبدأت آنا الحديث بقولها إنها سعيدة باقتراب موعد الزواج.

فقالت مسز هارنهام: «أرى يا آنا أنه يحسن بنا أن نحيطه بكل شيء علمًا، فنخبره بأني أحرر خطاباتكِ حتى لا يفاجأ بمعرفة ذلك بعد الزواج، فيؤدي هذا إلى الفرقة، واتهامنا بتضليله».

فصرخت آنا ضارعة: «كلا يا سيدتي.. بالله إلا أقصرت عن هذا، فإنكِ إن فعلتِ أحجم عن الزواج.. وماذا عساي أن أصنع حينئذ؟ إن ذلك لقضاء عليَّ أي قضاء وأنا أُجِدُّ في تعلم الكتابة. وقد أحضرت معي كراسة الخط التي منحتني إياها فضلًا وإحسانًا. وأنا أتمرن على الكتابة في هذه الكراسة كل يوم، ومع أني ألقى غاية المشقة في التعليم، فإن المثابرة ستؤتي ثمرتها آخر الأمر».

فنظرت إديث إلى الكراسة. وكانت النماذج مكتوبة بخطها هي. وكل ما أحرزته الفتاة من تقدم كان تقليدًا شائها لخط السيدة. وحتى إذا حاكت خط سيدتها المنساب الجميل، فأنى لها الخيال والإلهام!

وقالت (آنا): «إن أسلوبك آية في الجمال، وأنت تترجمين عن مشاعري بما لا أستطيعه أنا. وأرجو ألا تتخلي عني في هذه المحنة».

فأجابت إديث بقولها: «هذا حسن.. ولكني.. أنا لا ينبغي لي أن أواصل الكتابة فيما أظن».

- «لماذا يا سيدتي؟».

فأجابت السيدة في صدق، لكي تنفس عن عاطفتها المتأججة:

- «لأن هذا يؤثر في نفسي».

- «لا يمكن أن يكون لذلك أي تأثير فيكِ».

- «لماذا أيتها الطفلة؟».

فقالت (آنا) في صراحة مطلقة: «لأنكِ سيدة متزوجة».

«طبعًا لا يمكن أن يكون له أي تأثير»، كذلك كان جوابها المتلهف، وهي تستشعر، برغم عتب ضميرها، ألا يزال أمامها أن تكتب خطابين أو ثلاثة تتنفس فيها عواطفها الحبيسة.

- «ولكن يجب ألا تدخري جهدًا في كتابة اسمكِ كما أكتبه أنا».

وسرعان ما كتب إليها (راي) عن الزفاف، فقد صمم على سلوك أحكم السبل إزاء عمل يراه من نزوات الخيال، فتاقت نفسه إلى التجربة الكبرى. وود لو أُقيمت حفلة الزفاف في لندن إيثارًا للكتمان. وودت إديث أن تُقام في ملشستر.. أما آنا فلم يكن لها رأي. وتغلب رأيه، وشغلت السيدة، وقد اعترتها نوبة من الحماسة الحزينة، بإعداد معدات الزفاف. واستولى عليها آخر الأمر شعور يائس حزين، بأنها يجب أن تشهد مصرع أحلامها، مهما يكن من شيء. وأن ترى للمرة الثانية ذلك الشاب الذي هزت كتاباته أعماق نفسها. فعرضت على (آنا) أن تسافر معها لترافقها في أثناء الحفل.. «ولترى آخرتها» كما قالت في مرح متكلف. وقبلت الفتاة هذا العرض، شاكرة ممتنة، فليس لها من صديقة أخرى تستطيع القيام بدور الصاحبة والشاهدة أمام الشاب النبيل، بحيث لا يشعر بأن مركزه الاجتماعي قد صُدع صدعًا لا سبيل إلى إصلاحه.

وفي صباح موحل من شهر مارس، نزل (راي) من عربة ذات عجلات أربع، عند باب مكتب التسجيل في الحي الجنوبي الغربي من لندن، ومد ساعده فأنزل فتاتين في رفق، هما (آنا) وصاحبتها (مسز هارنهام)، وبدت (آنا) فتاة شائقة في الملابس الحديثة الطراز التي عاونتها سيدتها على شرائها. بيد أنها لم تبلغ شأو تلك الطفلة البريئة، التي تراءت في ثوبها الريفي، على صهوة الحصان الخشبي، في سوق ملشستر.

وكانت مسز هارنهام قد حضرت إلى لندن هذا الصباح في قطار مبكر، وقابلهم أحد أصدقاء (راي) عند الباب. ودخل الأربعة مكتب التسجيل معًا. وكان (راي) قبل ساعة واحدة من هذا الموعد، قد لقي زوجة تاجر النبيذ، مرة واحدة، وكان لقاء عارضًا في جلبة المولد، فلم يتعرف إليها إلا تعرفًا غاية في السطحية. ولم يستغرق تسجيل الزواج وقتًا طويلًا، ولكن راي شعر، على نحو ما، أثناء إجراءات العقد، أن تجاذبًا خفيًّا يسري بينه وبين صديقة (آنا).

وحين تمت مراسم القران، أو بعبارة أدق، حين سجلت علاقة قائمة بالفعل، استقل الأربعة عربة إلى منزل استأجره (راي) أخيرًا في ضاحية جديدة، مؤثرًا إياه على منزل لم يعد يستطيع دفع إيجاره. وفي هذا المنزل الجديد قطعت (آنا) الكعكة التي ابتاعها راي في الليلة الماضية، وهو عائد إلى منزله من دار لنكولن.

ولكنها لم تزد على ذلك شيئًا، فاضطر صديق راي إلى الانسحاب بعد برهة يسيرة، فلم يبقَ في الواقع غير شخصين.. إديث وراي.. يتبادلان الرأي في إقبال وشغف وحيوية، وظل الحديث لا يتعداهما، وكانت (آنا) أشبه بحيوان مستأنس، يستمع في تواضع إلى ما يقال، ولكنه لا يفهم منه شيئًا. وبدأ الفزع يساور راي حين أدرك ذلك، وأخذ يضيق بزوجة غير قمينة به.

وأخيرًا قال للسيدة دون أن يحفل بالإفصاح عما يساوره من ضيق: «يا مسز هارنهام، إن حبيبتي مستثارة لا تدري ماذا تفعل أو تقول، وأظنها بعد هذا الحادث السعيد، في حاجة إلى شيء من

الهدوء، قبل أن تستطيع تشنيف آذاننا بهذه الفلسفة الرقيقة التي أتحفتني بها في خطاباتها».

وكان العروسان قد اتفقا على أن يقوما برحلة بعد الظهر إلى (نولسي). حيث يقضيان الأيام الأولى من شهر العسل. واقتربت ساعة السفر، فطلب (راي) إلى زوجته أن تجلس إلى المكتب في الحجرة المجاورة لتحرر كتابًا لأخته، فقد عاقتها وعكة عن حضور الحفل.. وتخبرها في الكتاب أن الحفل قد تم، وتشكرها على هديتها الجميلة، وأنها تأمل أن تتوثق بينهما أواصر المودة بعد أن أصبحت أختها كما هي أخت شارل.. وأردف ذلك بقوله:

- «دبجيه بأسلوبكِ الشِّعري البارع.. لأني أريد أن تكسبي مودتها بصفة خاصة، وأن تصبحا صديقتين حميمتين».

فبدت أمارات القلق على (آنا)، ولكنها انصرفت إلى الحجرة المجاورة.. ولبث راي يحادث الضيفة.. وطال غياب آنا، فنهض زوجها فجأة وذهب إليها.

فوجدها لا تزال منحنية على المكتب، والدموع تفيض من مقلتيها: فنظر إلى الخطاب في شيء من الاهتمام، وهو يأمل أن تطالعه روعة تعبيرها عن مودتها في هذا الظرف الدقيق.

ولشد ما كانت دهشته حين وجد أنها لم تكتب سوى أسطر قليلة، في خط طفلة، وتفكير إوزة.

فقال مندهشًا: «آنا.. ما هذا؟».

فأجابت بين زفراتها: «أنا لا أستطيع أن أكتب خيرًا من هذا».

- «كلا.. هذا مستحيل».

فأصرت على ما قالت، وتشبثت به تشبثًا باكيًا حزينًا: «أنا لا أستطيع.. أنا لم أكتب هذه الخطابات يا شارل.. وإنما كنت أخبرها بما أريدها أن تكتب.. ولكني أتعلم بسرعة كبيرة يا زوجي العزيز.. ولتغفر لي أني حبست ذلك النبأ عنك حتى الآن».

وجثت على ركبتيها، وأمسكت خاصره في ذلة، ومالت بخدها عليه.

وظل واقفًا بضع دقائق، ثم رفعها، واستدار فجأة وخرج، وأوصد الباب دونها.

وعاد إلى (إديث) في حجرة الاستقبال.. ففهمت أنه قد وقف على أمر أحزنه.. وظلت عيناها شاخصتين إلى عينيه. ثم قال في هدوء يعتريه شحوب: «هل يصدق حدسي.. لقد كنتِ تكتبين خطاباتها طول هذه المدة». فقالت إديث: «كان هذا ضروريًّا».

- «هل كانت تملي عليكِ كل كلمة تكتبينها إليَّ؟».

- «ليس كل كلمة».

- «كلمات قليلة؟».

- «نعم».

- «وهل كتبتِ قدرًا كبيرًا من هذه الصفحات كل أسبوع، من وحي شعوركِ، وإن أمهرته باسمها؟».

- «نعم».

- «وهل كتبتِ كثيرًا من هذه الخطابات في وحدتكِ، دون أن تتصلي بها؟».

- «نعم».

فاتجه إلى خزانة الكتب، واتكأ عليها وقد وضع يده على وجهه، فلما أحست إديث بما يضنيه من حزن، امتقع وجهها وغاض دمه، فقال لها هامسًا: «لقد خدعتني وحطمتني».

فصاحت من فرط الألم، وقد وثبت نحوه، ووضعت يدها على كتفه: «لا تقل هذا.. فإني لا أطيق».

- «أتخدعينني بهذه الخطابات الممتعة؟ لماذا تفعلين ذلك.. لماذا؟».

- «بدأت الكتابة شفقة بها.. فماذا عساي أن أفعل غير ذلك، إنقاذًا لفتاة ساذجة كهذه من الشقاء. ولكني أعترف بأني واصلت الكتابة إمتاعًا لروحي».

فرفع عينيه إليها وسألها: «وما سر هذه المتعة الروحية؟».

قالت: «هذا ما يجب ألا أبوح به».

وظل ينظر إليها، فرأى شفتيها ترتجفان تحت نظراته النافذة.. وعينيها تغرورقان بالدموع وتغمضان، ثم انتحت جانبًا وقالت إنها يجب أن تذهب إلى المحطة، لتدرك قطار العودة. ورجت أن تُستدعى عربة تقلها إلى المحطة.

فاقترب منها راي وأمسك بيدها، فلم تمانع: «أتفكرين في الرحيل؟ كيف؟ إننا صديقان، بل حبيبان مخلصان.. بيننا ود نمته المراسلة».

- «نعم. وهذا ما أحسب».

- «والأمر أبعد من هذا أثرًا».

- «وكيف؟».

- «هذا طبيعي.. ولا فائدة من الإنكار.. فآنا زوجي قانونًا وعرفًا.. أما أنتِ فزوج روحي وإِلْف نفسي.. أنتِ لا غيركِ من النساء».

- «صه».

- «لن أسكت. لماذا لا تعترفين بالحقيقة كلها، بعد أن اعترفتِ بنصفها؟ لقد توثقت الأواصر بينكِ وبيني، لا بينها وبيني.. والآن فلأكتفِ بذلك.. ولكن أيتها الحبيبة القاسية، إن لي عليك حقًّا».

لم تسأله عن هذا الحق، فاجتذبها إليه وقال وهو يضغط على الألفاظ، ليؤكد المعنى الذي يرمي إليه: «إذا كانت الخطابات من نسج الخيال، فأعطني خدكِ فقط، أما إذا كانت من فيض القلب، فامنحيني شفتيك.. وهذه هي المرة الأولى والأخيرة».

فأدارت له فاها، فقبَّلها قبلةً طويلةً.

فقالت باكية: «وهل تغفر لي؟».

- «نعم».

- «ولكني حطمتك».

فقال وهو يهز كتفيه: «وماذا يهم.. لقد نلت الجزاء الذي أستحق».

ثم تراجعت وجففت عينيها، ودخلت تودع آنا التي لم تكن تتوقع أن تسافر سيدتها بهذه السرعة. وكانت لا تزال تقدح زناد الفكر لتكتب الخطاب.

وتبع (راي) إديث وهي تهبط الدرج، ولم تمضِ ثلاث دقائق حتى كانت في عربة تقلها إلى محطة واترلو.

ثم عاد إلى زوجته يقول في رقة: «لا يهمكِ الخطاب اليوم يا آنا.. ارتدي ملابسكِ.. فنحن أيضًا يجب أن نبادر بالرحيل».

فانتعشت روح الفتاة الساذجة، وأحست بأنها صارت له زوجًا، وبدا عليها السرور والغبطة، حين وجدت زوجها وقد تكشف له السر، رفيقًا بها كما كان. ولم يَدُرْ لها في خاطر أن زوجها يخال أنه في سفينة رق، مصفد بالأغلال، محكوم عليه، وهو ابن لندن الأنيق، أن يقضي حياته مع هذه الفلاحة الأمية التي وضعت إلى جانبه.

وعادت إديث في نفس اليوم إلى ملشستر، وقد ارتسمت على وجهها أمارات الحزن المرير، وكانت شفتاها لا تزال ترتعشان من ضغط قبلته اليائسة.. لقد تبدد حلمها العاطفي الجميل.. وبلغت محطة ملشستر في الغسق، وكان زوجها ينتظرها، ولكنه كان مشغولًا بأعماله، وكانت هي مستغرقة في همومها، فلم يرَ أحدهما صاحبه. فغادرت المحطة وحدها.

وسارت سيرًا آليًّا إلى المنزل دون أن تستدعي عربة، وحينما دخلت منزلها لم تحتمل ما يخيم عليه من سكون، وذهبت في الظلام إلى حجرة آنا، ولبثت تفكر هنيهة، ثم عادت إلى غرفة الاستقبال.

ودون أن تحس بما تفعل، استلقت على الأرض في ذلة وهوان، وهي لا تزال تردد: «لقد حطمته.. وقضيت عليه.. لأني لم أشأ أن أخونها».

وفي خلال نصف ساعة، فتح باب الحجرة:

«مَن القادم؟»، كذلك كان سؤالها الذي ألقته في ذعر والحجرة مظلمة.

فرد عليها التاجر الوقور: «زوجكِ.. مَن عسى أن يكون؟».

«آه زوجي..»، وهمهمت لنفسها: «لقد نسيت أن لي زوجًا».

وتابع الزوج حديثه قائلًا: «لم أركِ في المحطة.. هل رأيتِ (آخرة آنا) واطمأننتِ عليها؟ أرجو ذلك.. لأن حالتها كانت غاية في الحرج».

- «نعم لقد تزوجت آنا».

وبينما كانت إديث لا تزال في رحلتها إلى ملشستر، كانت (آنا) وزوجها جالسين إلى نافذتين متقابلتين في عربة من عربات الدرجة الثانية، في قطار ذاهب إلى نولسي، وكان في يد زوجها دفتر مليء بأوراق مغضنة، مكتوبة بخط أنيق. وجعل يفتح هذه الأوراق واحدة أثر واحدة.. ويقرؤها في صمت.. ثم يتنهد.

- «ماذا تفعل يا شارل العزيز؟».

كذلك ابتدرته زوجته المتوجسة، وهي إلى جوار النافذة الأخرى، ثم اقتربت منه في تهيب وحذر وكأنها تقترب من إله..

فأجابها في استسلام حزين: «أعيد قراءة الخطابات الحلوة.. الممهورة بتوقيع (آنا)».

## إرضاء لزوجته

### -1-

في عصر يوم شتوي ملبد بالغيوم، أخذ الظلام ينتشر تدريجيًّا داخل كنيسة القديس جيمس في مدينة (هافنبول) وكنا في يوم الأحد، وقد انتهت الصلاة لتوها، ووارى القسيس وجهه بيديه وهو على المنبر، وتنفس المصلون الصعداء، ونهضوا من ركعتهم لينصرفوا.

وساد السكون لحظة، حتى سمع اصطخاب البحر وراء سور الميناء، ثم قطع السكون صوت أقدام الكاتب وهو يتجه إلى الباب الغربي ليفتحه فيخرج منه المصلون.

ولكنه قبل أن يبلغ الباب، رفع المزلاج من الخارج وتراءى على صفحة الضوء هيكل مظلم يرتدي زيَّ بحَّار.

فانتحى الكاتب ناحيته، وأوصد البحّار الباب في رفق، وتقدم في صحن للكنيسة، ثم وقف على درج المذبح. فقطع القسيس صلاته الخاصة القصيرة التي كان يؤديها بعد صلاته للناس، ونهض على قدميه، وحدَّق في الرجل الدخيل.

قال البحّار للقسيس بصوت واضح سمعه الجميع: «لا تؤاخذني يا سيدي فقد أتيت لأحمد الله على نجاتي من الغرق بأعجوبة، ولعل من الخير أن أفعل ذلك، إذا لم يكن لديك اعتراض».

فقال الأسقف في تردد، بعد أن سكت لحظة: «ليس لديَّ أي اعتراض بطبيعة الحال». غير أن هذه الرغبات تُبدى -عادة- قبل الصلاة، حتى يتلى الدعاء المناسب في صلاة الشكر العامة، ولكن إذا شئت، قرأنا عبارة الشكر التي تُتلى بعد العواصف البحرية».

فقال البحّار: «فليكن ما ترى».

أرشد الكاتب البحّار إلى صفحة من كتاب الصلوات فيها دعاء الشكر، وبدأ الأسقف قراءتها، وأخذ البحار وهو راكع، يردد الدعاء بعد الأسقف كلمة كلمة، في صوت واضح.

ولبث الناس مشدوهين لا يتحركون، ثم ركعوا دون تفكير، واستمروا يتأملون البحّار، وكان يركع وحده في منتصف درج المذبح، وقد ولى وجهه قبل المشرق، ووضع قبعته إلى جانبه، وهو لا يحس بتاتًا أن أبصارهم قد علقت به.

ولما انتهت صلاته نهض، ونهض الناس أيضًا، وخرج الجميع من الكنيسة في وقت معًا، وما إن خرج البحّار، وانعكست على وجهه بقية من ضوء النهار، حتى أخذ الأهالي القدامى يعرفون فيه

(شادراك جوليف) وهو شاب من أبناء المدينة غاب عنها سنوات عديدة. وقد مات أبواه، فاشتغل منذ حداثته بالملاحة في خط نيوفد ندلاند.

وجعل يتحدث إلى هذا وذاك من أهل المدينة في أثناء سيره، فأخبرهم أنه في خلال مدة غيابه، قد صار قبطانًا وصاحب قارب ساحلي، أنقذته العناية الإلهية كما أنقذت صاحبه، وسرعان ما تقدم إلى فتاتين خرجتا من الكنيسة قبله، وكانتا في صحنها حين دخوله، ترقبان في اهتمام عميق. وأخذتا تتحدثان في عودتهما من الكنيسة. كانت إحداهما ضئيلة رقيقة، والأخرى طويلة عريضة واعية. فجعل كابتن جوليف ينقل بصره بين خصلات الشَّعر المتهدلة وكتفيهما، وظهريهما حتى الكعبين.

سأل جاره همسًا: «مَن عسى تكون هاتان الفتاتان؟».

- «الصغيرة! إميلي هانتج، والطويلة جوانا فيبارد».

- «أوه تذكرتهما الآن تمامًا».

اقترب منهما، واسترق إليهما النظر والبشر يعلو وجهه، وقال وهو يصوب عينيه المشرقتين السمراوين إلى إحداهما: «إميلي، ألا تعرفينني؟».

فأجابت إميلي في استحياء: «أظن أني أعرفك يا مستر جوليف».

وحدجته الأخرى بنظرة من عينيها السوداوين، فاستطرد يقول:

- أما وجه مس جوانا فلا أذكره تمامًا، وإن كنت أعرف أسرتها».

ثم ساروا معًا يتحدثون، وجعل جوليف يقص عليهم خبر نجاته العجيب، حتى بلغوا (عطفة سلوب) وكانت تقيم بها إميلي هانتج، فودعتهما بإيماءة وابتسامة.

وسرعان ما افترق البحار وجوانا. ولم يكن له غاية يسعى إليها أو موعد يحدد وجهته، فعاد أدراجه صوب منزل إميلي هانتج، وكانت تقيم فيه مع أبيها، الذي يدعو نفسه محاسبًا، وكانت إميلي تشرف على محل لبيع الورق، يدر عليهما ما ينفقان، حين ينقطع الأب عن العمل. ودخل جوليف منزل إميلي، فوجد الأب وابنته على أهبة تناول الشاي، فقال: «لم أكن أعلم أن هذا وقت الشاي.. سأتناول قدحًا بكل سرور».

ولبث فترة تناول الشاي، وفترة طويلة بعدها، يروي أنباء مغامراته في البحر. وأقبل كثير من الجيران ليستمعوا إلى أخباره، فطلب إليهن الدخول. والعجيب في الأمر أن قلب إميلي قد وقع هذه الليلة في حبائل هذا البحَّار. وما هو إلا أسبوع أو أسبوعان، حتى توثق بينهما التفاهم والود.

وفي ليلة مقمرة من الشهر التالي كان شادراك يسير في الطريق المستقيم، الذي يمتد شرقًا ويؤدي إلى ضاحية مرتفعة، تنتظم منازل أحدث طرازًا من منازل المدينة، إذا جاز أن نصف شيئًا في هذه الميناء العتيقة بأنه حديث الطراز، فتراءى شبح فتاة تسير أمامه وتتلفت خلفها، فحسبها إميلي. ولكن ما كاد يتقدم نحوها حتى عرف أنها (جوانا فيبارد)، فحياها تحية رشيقة وسار إلى جانبها.

قالت له: «امض في سبيلك لئلا تغار إميلي»، ولم يبدُ عليه أنه أخذ بهذا الرأي، فقد سار إلى جانبها.

ولا يذكر شادراك مما قالاه أو عملاه في هذه النزهة، غير أن (جوانا) قد غصبته من غريمتها التي تصغرها سنًّا، وتفوقها دعة ورقة.

ومنذ ذلك اليوم توثقت المودة بين جوليف وجوانا وتراخت بينه وبين إميلي. وسرعان ما سرى النبأ في الميناء أن ابن جوليف الذي عاد من البحر، سيتزوج جوانا..

ويدع إميلي يذوب قلبها حسرات.

فلما ذاع هذا النبأ ارتدت جوانا ملابس الخروج ذات صباح، وولت وجهها شطر منزل إميلي في الحارة الصغيرة، فقد بلغت مسامعها أنباء الحزن العميق الذي اشتمل على صديقتها، وأنبها ضميرها لأنها غصبت فتاها.

لم تكن (جوانا) راضية كل الرضى عن البحَّار، وإن طربت نفسها لحفاوته بها، وكانت تتوق إلى الحياة الزوجية، ولكنها لم تحس نحوه بالحب العميق أبدًا. فهي فتاة طموح. وليس مركزه الاجتماعي مغريًا، فهو لا يكاد يعدل مركزها. والفرصة سانحة أبدًا لأن تتزوج الفتاة الجذابة من طبقة أعلى من طبقتها. لذا قرَّ رأيها على أن تدع رد شادراك لإميلي، إذا كان الألم قد بلغ منها مبلغه. فكتبت -لهذا الغرض- خطابًا لشادراك، حملته في يدها لترسله إليه، إذا اقتنعت بأن صاحبتها في محنة حقًّا.

دخلت جوانا في عطفة سلوب، ودلفت إلى دكان الورق الذي كان تحت مستوى الطوار، وكان من عادة والد إميلي أن يتغيب عن منزله في هذه الساعة، ويظهر أن إميلي نفسها ليست بالمنزل. إذ لم يحس أحد بمقدم الزائرة. وكان الزبائن من الندرة بحيث لا يضير صاحبة المتجر أن تتغيب فترة قصيرة. فلبثت جوانا في الدكان الصغير الذي نسقت فيه إميلي بضائعها بذوقها الرشيق، كما يفعل النساء عادة، وكانت البضائع تافهة، ولكنها تشغل فراغ الدكان. ثم رأت شبحًا يقف خارج النافذة، ويتظاهر بتأمل الكتب ذات البنسات الستة، ورزم الورق، والمطبوعات المعلقة في خيط.. إنه كابتن شادراك جوليف، ينظر إلى داخل المتجر ليتأكد من أن إميلي بمفردها.

فكرهت جوانا أن تلقاه في مكان يعبق بروح إميلي، وتسللت في خفة من باب يصل المتجر بغرفة الاستقبال. وكانت لا تتحرج من أن تفعل ذلك لأن إميلي صديقة حميمة.. ولا كلفة بينهما.

دخل جوليف المتجر. ونظرت جوانا من خلال ستار رقيق يغطي الباب الزجاجي، فرأت ما شعر به الشاب من خيبة الأمل حينما لم يجد إميلي. وأوشك أن ينصرف، لولا أن قدمت إميلي.. وكانت حثيثة الخطى، رأت جوليف فأجفلت، وكأنما تريد العودة فقال لها: «بالله لا تهزلي يا إميلي.. ماذا يخيفكِ؟».

- «لست خائفة يا كابتن جوليف.. كل ما في الأمر أني رأيتك فجأة، فوثبت برغمي». وكان صوتها ينبئ أن وثبة قلبها كانت أقوى من وثبة باقي جسمها. فقال لها:

«لقد عرجت عليكِ في طريقي..».

فقالت وهي تسرع وراء الخزانة: «أتريد بعض الورق؟».

- «لا.. لا يا إميلي. لماذا تذهبين وراء الخزانة؟ لماذا لا تبقين إلى جانبي؟ يبدو أنكِ تكرهينني».

- «لست أكرهك. وكيف أستطيع ذلك؟».

- «إذَنْ فتعالي نتحدث».

فأطاعت إميلي إشارته. وهي تضحك ضحكة عصبية، واقتربت منه حتى وقفت إلى جانبه، في الجزء الخالي من المتجر. قال:

- «أنتِ عزيزتي».

- «لا تقل ذلك يا كابتن جوليف.. فهذه كلمة توجه إلى شخص آخر».

- «آه.. إني أعرف ما تقصدين. لكن يا إميلي أقسم لكِ بحياتي أني لم أعرف حتى هذا الصباح أنكِ تحفلين بي أقل احتفال! ولو عرفت ذلك من قبل، لكان لي شأن غير ما كان.. إني أحس نحو جوانا أجمل الأحاسيس، ولكني أعلم من بادئ الأمر أنها تعدُّني صديقًا.. لا أكثر. أما الآن فقد وجدت الفتاة التي كان ينبغي أن أطلب يدها.

فأنتِ تعرفين يا إميلي أن الرجل حين يعود من البحر، يكون أعشى البصر كأنه الخفاش. فلا يميز بين النساء.. كلهن في نظره سواء، فيقنع بأول صيد سهل منها، دون أن يفكر أتحبه المرأة حقًّا أم لا تحبه، أو أنه قد يحب بعد قليل فتاة خيرًا منها. وقد هفا إليكِ فؤادي من أول لحظة، ولكنكِ أسرفتِ في التحفظ، وأمعنتِ في الحياء، فحسبت أنكِ لا تريدين أن أضايقكِ، فذهبت إلى جوانا».

فقالت إميلي بصوت مختنق: «بعد هذا يا مستر جوليف.. أنك ستتزوج من جوانا في الشهر القادم.. ومن الخطأ أن.. أن..».

فقال والدمع يترقرق في عينيه، وقد طوق جسمها الضئيل بذراعيه قبل أن تنتبه له: «إميلي، حبيبتي».

فامتقع لون جوانا من وراء الستار. وحاولت أن تثني عينيها عن النظر، ولكنها لم تستطع.

- «أنتِ أنتِ مَن أحب كما ينبغي للرجل أن يحب شريكة حياته. وقد علمت من حديث جوانا لي أنها تعتزم أن تدعني لكِ! إنها تريد أن تتزوج من شخص أعلى مني، ولم توافق على طلبي إلا شفقة بي.. ففتاة جميلة طويلة مثلها لا تتشوف إلا الزواج من بحَّار. وأنتِ أصلح الناس لي».

وضمها إليه وقبلها ثم قبلها، وجسمها اللدن يرتعش بين ذراعيه.

- «ترى؟ هل أنت واثق أن جوانا سوف تخلي سبيلك؟ أواثق أنت.. لأن...».

- «أعلم أنها لا ترضى أن تشقينا، وأنها ستخلي سبيلي».

- «أوه.. أرجو ذلك.. أرجو.. لا يطل مكثك هنا يا جوليف».

لكنه تلكأ حتى أتى شخص يبتاع شمعة ختم ببنس واحد فانصرف.

أضرم هذا المشهد لظى الغيرة في قلب جوانا. فبحثت عن مهرب، وصممت على ألا تُعلم إميلي بأمر زيارتها. فخرجت في حذر من حجرة الاستقبال إلى الممر، وتسللت من باب المنزل الخلفي إلى الشارع، دون أن يحس بزيارتها أحد.

وقلب مشهد الغزل الذي رأته، كل ما عقدت عليه العزم من قبل. وصارت لا تستطيع أن تضحي بشادراك أو تتخلى عنه. وما إن وصلت إلى منزلها، حتى أحرقت الخطاب. وطلبت إلى أمها أن تخبر كابتن جوليف إذا أتى لزيارتها، أنها مريضة لا تستطيع لقاءه.

ولكن شادراك لم يأتِ لزيارتها، بل أرسل إليها كتابًا يصف فيه حقيقة شعوره، وصفًا بسيطًا. ويقول إن عاطفتها نحوه لا تعدو الصداقة، ولعل هذا مما ييسر إلغاء الخطبة.

ولبث في منزله فترة طويلة، يتأمل الميناء والجزيرة التي تليها، وهو ينتظر أن يأتيه رد، ولكن الرد لم يصله، وأرخى الليل سدوله، فثقل عليه الانتظار، ولم يتمالك أن انحدر إلى الشارع الرئيس ليزور جوانا، ويعلم مصيره. وهناك أخبرته أمها أن جوانا مريضة لا تستطيع لقاءه، وأن مرضها يرجع إلى رسالة بعث بها إليها، فأصابها بجراح بعيدة الغور.

فقال لها: «لعلكِ تعرفين فحوى الرسالة يا مسز فيبارد؟».

فقالت إنها تعرفها، وإن هذه الرسالة قد وضعتهما في موقف غاية في الإيلام، فخشى شادراك أن يكون قد ارتكب خطيئة، وحاول أن يستدرك خطأه، فقال إن رسالته إذا آلمت جوانا فهذا يرجع إلى أنها لم تفهم مراده. فقد حسب جوانا لا تحفل به ولا ترضاه زوجًا، وأنها ستسر بتخلصها منه. أما وهي تريده، فهو يعد نفسه مقيدًا بكلمته.. وكأن الرسالة لم تكن».

وجاءته في الصباح التالي رسالة شفوية من جوانا تطلب إليه فيها أن يمر عليها في المساء، ليصطحبها إلى منزلها حيث تكون في أحد المجتمعات، فقام بما طلبت إليه، وبينا هما يسيران وذراعها في ذراعه قالت له: «كل شيء بيننا كما كان. والرسالة قد أرسلت خطأ، أليس كذلك يا شادراك؟».

- «كل شيء كما كان.. إذا رأيتِ ذلك».

فهمست وقد تصلبت ملامحها وهي تفكر في إميلي: «أرجو أن يعود كل شيء كما كان».

وكان شادراك رجلًا متدينًا ذا ضمير، يفي لوعده وفاءه لحياته.

وما هي إلا أيام، حتى عُقد القران. وكتب جوليف لإميلي في أرق لفظ أنه أخطأ في فهم عواطف جوانا، حين حسب أنها لا تحفل به.

* * *

ماتت أم جوانا بعد مضي شهر على زواج ابنتها. واضطر الزوجان أن يوجها اهتمامهما إلى النواحي العملية من الحياة.. ولم تكن تطيق فكرة رجوع زوجها إلى البحر، بعد أن فقدت والدتها، لكن بقيت مشكلة... فماذا عساه أن يصنع هنا؟

وقرّ رأيهما أخيرًا على أن يشتريا دكان بدال كان معروضًا للبيع في ذلك الوقت. وكان شادراك لا يدري عن التجارة شيئًا، ولا تعرف جوانا عنها إلا القليل الضئيل، ولكنهما كانا يأملان أن يتدربا عليها شيئًا فشيئًا.

ووقفا كل جهودهما على إدارة هذا المتجر، واستمرا كذلك سنوات طويلة متوالية، دون أن يصيبا نجاحًا كبيرًا. وأنجبا طفلين، وكانت جوانا تحبهما حبًّا بلغ درجة العبادة، وإن لم تشعر بحب شديد نحو زوجها.. فأحاطت الطفلين بكل تفكيرها وأشواقها وآمالها. بيد أن المتجر لم ينجح، وتبددت أحلامها الحلوة إزاء الواقع المرير، فلم تعلمهما تعليمًا راقيًا، وتعدهما لمهنة محترمة كما كانت تأمل، بل علمتهما أبسط أنواع التعليم. وإن كانت إقامتهما قرب البحر قد زودتهما بخبرة في الفنون البحرية التي يولع بها الصبيان عادة في هذه السن.

ولم يكن في خارج حياتهما الخاصة ما يثير اهتمامهما إلا زواج إميلي. ففي مصادفة من تلك المصادفات العجيبة التي تكشف عن القابعات المغمورات، بينما تحجب الظاهرات البارزات، رأى إميلي أحد التجار الناجحين في المدينة، فملأت شغاف قلبه. وكان هذا التاجر يكبر إميلي ببضع سنين، وإن كان لا يزال في ربيع العمر.

وكانت إميلي قد أعلنت بادئ الأمر أنها لن تتزوج مطلقًا. ولكن مستر لستر ثابر مثابرة هادئة رفيقة، حتى رضيت الفتاة، وأنجبت هي الأخرى طفلين، كبرا وحالفهما التوفيق، فقالت إميلي إنها لم تكُ تحلم بأنها ستعيش حتى تحظى من السعادة بهذا النصيب.

وكان ذلك التاجر الثري يقطن قصرًا من القصور الفسيحة المتينة البنيان يطل على الشارع الرئيس، ويكاد يواجه متجر البقالة الذي يملكه جوليف. وكان مما يؤذي شعور جوانا أن تشاهد المرأة التي اغتصبت مكانها -لمجرد الاغتصاب- وهي تطل من منزلها الفخم على الدكان المتواضع، بما فيه من أقراص السكر المغبرة، وأكوام الزبيب، وعلب الشاي.. وهي البضائع التي قدر عليها أن تتولى شأنها بعد أن تضاءل المتجر وتدهور، واضطرت جوانا أن تشتغل فيه بنفسها. وكان يحز في نفسها ويثير حفيظتها أن إميلي لستر وهي جالسة في حجرة استقبالها الواسعة المطلة على الشارع، تستطيع أن ترى جوانا، صاعدة هابطة وراء الخزانة، تلبية لطلبات زبائن البنس والبنسين، الذين يتحكمون فيها تحكمًا لا تملك غير الترحيب به. وإذا صادفوها في الطريق وجب عليها أن تجاملهم وتتأدب معهم، بينا تسير إميلي مختالة، وإلى جانبها ولداها ومربيتهما، وتتحدث

إلى أرقى الأوساط. كان هذا ما جنته جوانا حيت استأثرت بشادراك -ولم تكن به مولعة- ومنعت عاطفته أن تتجه وجهة أخرى.

وكان شادراك رجلًا طيبًا أمينًا، وهب زوجته قلبه وجهده.. وكان الزمن قد نهنه هيامه بإميلي، بعد أن تجاوز الدور الخيالي من أدوار حبه، وصار حبه إلى صداقة، وكذلك صار حبها إياه. ولعل جوانا كانت تشعر بشيء من الرضى لو وجدت إميلي سببًا للغيرة منها، ولكن هذا الاستسلام المطلق الذي قابلت به إميلي وشادراك نتيجة تدبيرها، هو الذي أجج سخط جوانا وأثار تبرمها.

ولم يكن شادراك على حظ من تلك الموهبة اليسيرة، التي تعين تاجرًا صغيرًا على أن يقف في وجه منافسيه الكثيرين، فكان إذا سأله سائل أينصح حقيقة بشراء تلك المادة التي تستعمل في الحلوى بدل البيض، (والتي ألح أحد العملاء عليه حتى قبلها). أجاب بأن مَن لم يضع بيضًا في الحلوى، لم يجد طعمه فيها. وإذا سأله سائل هل بنه اليمني من اليمن حقيقة؟ قال عابسًا: «كما هو مفهوم في الدكاكين الصغيرة» وهذه طريق غير الطريق المؤدية إلى الثروة والنجاح.

وحدث في يوم من أيام الصيف، والمنزل الفخم يعكس حرارة الشمس اللافحة على المتجر، ولم يكن به غير الزوج والزوجة، أن نظرت جوانا إلى إميلي فرأت عربة زائر ثري تقف بالباب.. وكانت جوانا قد أحست في نظرات إميلي بشيء من التفضل والإشفاق.

فهمست لزوجها في حسرة وأسى: «الحق أنك لست رجل أعمال يا شادراك، فأنت لم تهيأ للتجارة، ويستحيل على الإنسان أن يثرَى من عمل يقفز إليه قفزًا كما فعلت أنت».

فوافقها جوليف على هذا الرأي، كما كان يوافقها على كل ما تذهب إليه. وأجاب في سرور: «لا يعنيني أن أجمع ثروة، فأنا سعيد قانع، ونستطيع أن نحصل على أرزاقنا على نحو ما» وعادت تنظر إلى المنزل الكبير من خلال ستار من زجاجات المخلل، فقالت في مرارة: «نحصل على الرزق.. لا بأس.. ولكن تأمل إميلي ليستر كيف تعيش في بسطة من العيش، تلك التي كانت فقيرة معدمة. وسيذهب ولداها إلى الكلية من غير شك. بينما يذهب ولداك إلى مدرسة الأبرشية الحقيرة»، فعاودته ذكرى إميلي وقال بروح مرحة: «أنتِ صاحبة الفضل عليها يا جوانا.. فقد قطعتِ ما بيني وبينها من عبث. فاستطاعت أن تقبل الزواج من لستر».

فاستثارتها قولته، وذهبت بلبها، فقالت تتوسل في حزن ضارع مرير: «لا تتكلم عن الماضي. ولكن فكر -من أجل الأطفال وأجلي.. إن لم يكن من أجل نفسك- في طريقة تزيد بها ثروتنا؟».

فقال وقد عادت إليه علامات الجد: «الحق أني شعرت دائمًا أني غير صالح لهذا العمل، وإن لم أصرح بذلك أبدًا.. الظاهر أني محتاج إلى ميدان أرحب، ومجال أفسح، أخبط فيه حيث لا أصدقاء ولا جيران. فإني سلكت طريقي الخاصة، وصلت الثروة كما يصل إليها أي إنسان».

- «ليتك تفعل، ما هي طريقك الخاصة؟».

- «العودة إلى البحر».

وكانت هي التي أوحت إليه بالقبوع في عقر داره، فهي تكره حياة زوجة البحار، التي تشبه حياة الأيامى. ولكن طموحها إلى الثروة كبح هذه الكرامة، فقالت:

- «أتظن النجاح يحالفك إذا سلكت هذا الطريق؟».

- «أنا واثق أنه لا يحالفني في سواها».

- «أتحن إلى البحر يا شادراك؟».

- «ليس لما فيه من متعة وسعادة، فليس فيه ما أستمتع به هنا في منزلي، والواقع أني لا أحب البحر الآن ولم أحبه قبل الآن، ولكني أعود إليه لإثرائكِ وإثراء ولديكِ. وليس من طريق غيره لإثراء رجل مثلي، وُلِدَ بحَّارًا، وترعرع في البحر».

- «وهل ينقضي وقت طويل قبل أن تحصل على ثروة؟».

- «هذا يتوقف على الظروف. ربما حصلت عليها عاجلًا».

وفي الصباح التالي أخرج شادراك من إحدى الخزائن سترة البحَّار التي كان يرتديها حينما عاد من البحر، ونفض عنها التراب والعث، ثم لبسها وتوجه إلى رصيف الميناء. وكانت التجارة لا تزال تسير بين الميناء وبين نيوفوندلاند.. ولكنها صارت أشق مما كانت في سالف العهد.

ولم يمضِ وقت طويل، حتى اشترى بكل ما يملك جزءًا من سفينة شراعية، وعيَّن قبطانًا لها، وأمضى بضعة أشهر يتاجر بين المواني الساحلية. وأخذ يجلو عن نفسه صدأ البحر الذي علاه في دكان البقالة. وما وافى الربيع حتى أبحرت السفينة إلى نيوفوندلاند.

ظلت جوانا تعيش مع ولديها في المنزل، وكانا قد كبرا، وصارا صبيين قويين، يشتغلان بشتى الأعمال في الميناء وما حولها.

وكانت أمهما المولهة بهما تقول لنفسها: «إن اشتغالهما في الميناء لا يضير.. مؤقتًا.. إذ لا مندوحة عن ذلك في حالتنا الراهنة. أما حين يعود شادراك وتكون سنهما يومئذ لم تعد السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، فسيغادر العمل في الميناء، ويعهد بتعليمهما إلى مربٍّ خاص، فيكونان بفضل مال أبيهما أشبه بأبناء السادة، كابني إميلي الراقيين الغاليين، اللذين يعلمان الجبر واللغة اللاتينية».

حان وقت عودة شادراك، ثم حل اليوم المنتظر.. ولكنه لم يصل.. وقيل لجوانا ألا تدع نفسها فريسة للقلق، فمواعيد السفن الشراعية غير مضبوطة.. وقد صح ما قيل. فبعد شهر من الموعد المرتقب،

أعلن في وقت متأخر من ليلة رطبة، أن السفينة قد اقتربت، وسرعان ما سمع وقع أقدام زوجها في الطريق، ثم في داخل المنزل، وكان الولدان قد خرجا لاستقباله، دون أن يصادفاه في الميناء، وكانت جوانا تجلس بمفردها.

وما كادت تهدأ نشوة اللقاء الأولى، حتى ذكر جوليف أن تأخره يرجع إلى أنه اشترك في مضاربات درت عليه مالًا وفيرًا، وأردف ذلك بقوله: «لقد آليت على نفسي أن أحقق رجاءكِ، ولعلكِ تعترفين بذلك، وعندئذ أخرج كيسًا ضخمًا من قماش خشن، مليئًا مكتنزًا كأنه كيس المارد الذي ذبحه جاك. فك الكيس ورجه، ثم نفضه في حجرها وهي جالسة في كرسيها الواطئ إلى جانب المدفأة، فهوت كمية وافرة من الجنيهات الذهبية أحدثت صوتًا مباغتًا وهبطت بحجر جوانا إلى الأرض.

- «تفضلي.. لقد قلت يا عزيزتي أني سأنجح.. فهل صدقت؟».

غادرت وجهها النشوة الأولى، التي علته أول ما رأت المال، فقالت: «هذا مبلغ لا بأس به.. ولكن أهذا كل ما هناك».

- «كل ما هناك؟ أتدركين يا عزيزتي جوانا أن هذه الكومة تبلغ ثلاثمائة جنيه؟ إنها ثروة».

- «نعم نعم. ثروة بالنسبة للبحر.. أما بالنسبة للبر!».

ولكنها أقصرت مؤقتًا عن التفكير في المال.. وما لبث أن أقبل ولداها.

وفي يوم الأحد التالي أعاد شادراك صلاة الشكر، ولكنه سلك فيها الطريقة المألوفة هذه المرة، وحينما أخذا يفكران في وسيلة لاستثمار المال، بعد وصوله ببضعة أيام، قال إنه لم تظهر من دلائل الرضى والارتياح، ما كان يرجو ويتوقع.

فأجابت: «أنصت إليَّ يا شادراك. إننا نعد بالمئات، وهم يعدون بالألوف»، وأومأت إلى الجانب الآخر من الشارع: «لقد اشتروا عربة وحصانين بعد سفرك».

- «أوه. هل فعلوا ذلك حقًّا؟».

- «يا عزيزي شادراك، أنت لا تدري من أحوال الدنيا شيئًا، ونحن نبذل غاية جهدنا.. ولكنهم أغنياء ونحن وما زلنا فقراء».

ومضى معظم العام في غير نظام أو اتساق، وظلت جوانا تنتقل بين المنزل والمتجر مكتئبة البال، شاردة اللب. وظل ولداها يعملان في المرفأ أو فيما حوله.

وذات يوم قال زوجها: «يا جوانا، فهمت من حركاتكِ أن المال الذي كسبته لا يكفي»، فأجابت: «نعم لا يكفي. سيشتغل أولادي في السفن التي يمتلكها آل لستر، وكنت يومًا من الأيام أعلى منها مركزًا».

ولم يكن جوليف رجل كلام وجدال، فقال هامسًا أنه يرى أن يقوم برحلة أخرى، ولبث أيامًا يفكر، ثم عاد من الميناء وقت العصر من أحد الأيام وقال فجأة:

«أستطيع أن أحقق آمالكِ يا عزيزتي في رحلة أخرى إذا.. إذا».

- «ماذا تستطيع؟».

- «أن أجعلكِ تعدين بالآلاف لا بالمئات».

- «تقول إذا؟».

- «إذا أخذت الولدين معي».

فامتقع لونها، وقالت في سرعة: «لا تقل ذلك يا شادراك».

- «لماذا؟».

- «لا أحب أن أسمع ذلك؛ فالبحر مخاطرة كثيرة؟ وأنا أريدهما أن يدخلا في الطبقة الراقية دون أن يتعرضا لأي خطر. وأنا لا أستطيع أن أدعهما يخاطران بحياتهما في البحر، لا أستطيع ذلك مطلقًا».

- «حسنًا يا عزيزتي لن يكون ذلك».

وفي اليوم التالي قالت بعد فترة صمت: «إذا صحبك الولدان، فهل يزيد الربح كثيرًا؟».

- «نعم يصير ثلاثة أمثال ما أربحه بمفردي.. فهما يقومان، تحت إشرافي، بعمل رجلين من أمثالي»، وبعد فترة عادت تقول:

- «زدني حديثًا في هذا الموضوع».

فقال: «أنا واثق أن ولديَّ ماهران مهارة البحارة المدربين، وليست الملاحة في البحار الشمالية أخطر منها عند الشطوط الرملية التي تحوط هذه الميناء، وقد تدربا على أعمال السفن منذ نعومة أظفارهما. ومهرا فيها مهارة لا أجدها في ستة من الرجال».

فسألت في قلق: «وهل البحر خطرٌ جدًّا في هذه الآونة. والحرب كما يقولون على الأبواب؟».

- «الأمر لا يخلو من خطرًا على أي حال.. ولكن..».

نمت الفكرة وتضخمت وأخذت عليها كل سبيل، وناء بها قلب الأم، فتفطر جزعًا، غير أن إميلي زاد ترفعها واستعلاؤها، فلم يَسَعْ جوانا أن تقصر عن الحديث في فقرها بالنسبة إلى إميلي. وكان الشابان سلسين كأبيهما، فأظهرا استعدادًا للرحيل كلما استمعا إلى مشروع هذه الرحلة. ومع أنهما كانا كأبيهما لا يحبان البحر في ذاته، فقد كانا يتحمسان للمشروع كلما سمعا تفاصيله.

وصار كل شيء الآن رهنًا بموافقة الأم، ولم تعطِ كلمتها إلا بعد مدة طويلة، فسمحت للشابين أن يصحبا والدهما، ولشد ما طرب شادراك لهذا الرأي. لقد حرسته عناية الله من قبل، فصلى لله شاكرًا، ولن يتخلى الله عن عباده المخلصين.

قامرت أسرة جوليف في هذا المشروع بكل ما تملك من حطام الدنيا، وخفضت ميزانية المتجر إلى أدنى حدٍّ يضمن الكفاف لجوانا طول المدة التي تستغرقها هذه الرحلة الساحرة إلى نيفوندلاند، ولم تكن تدري كيف تتحمل ما يصيبها من ملل إبان غياب ولديها.. فهما لم يسبق أن فارقا أمهما حتى الآن، إلا أنها أملًا في نجاح التجربة تجلدت وصابرت.

وحُمِّلت السفينة بالأحذية الطويلة والقصيرة، والملابس وأدوات الصيد والزبد والجبن، والحبال وأقمشة القلوع، وما إلى ذلك من البضائع، لتعود بالزيت والفراء، والجلود والسمك، وغيرهما مما يجدون في هذه البقاع. وسوف يتبادلون السلع مع الموانئ التي يمرون بها في أثناء الذهاب أو في أثناء العودة؛ علهم يصيبون بذلك مالًا وفيرًا.

* * *

أقلعت السفينة في صبيحة يوم الإثنين من أيام الربيع. ولكن جوانا لم تذهب إلى الشاطئ لتوديعها؛ فهي لا تطيق أن ترى مشهدًا أليمًا من آثار تدبيرها. وكان زوجها يعلم ذلك، فأخبرها في الليلة السابقة أنهم سيقلعون قبيل ظهر الغد.

ولما استيقظت في الساعة الخامسة صباحًا، سمعت هرجًا ولغطًا في الطبقة السفلية، فلم تهرع إليها، واستلقت على فراشها تستجمع أشتات قوتها، وتهدئ ثائرة أعصابها، لتقوى على احتمال موقف الوداع. وكانت تحسب أن الرحلة ستبدأ في الساعة التاسعة، كما بدأت رحلة زوجها السابقة. ولكنها حينما هبطت إلى الطبقة السفلى، رأت كلمات مكتوبة بالطباشير على واجهة المكتب، ولم ترَ زوجًا ولا ولدًا، وقال لها شادراك في الأسطر القليلة التي خطها على عجل أنهم رحلوا مبكرين ليكفوها مؤونة الوداع الموجع. وكتب الولدان تحت كلامه: «وداعًا يا أماه».

فهرعت إلى رصيف الميناء، وحدقت ببصرها فيما يلي المرفأ من مياه زرقاء، ولكنها لم تتبين على الأفق غير صواري السفينة (جوانا) وأشرعتها، ولم تتبين على ظهرها إنسيًّا. فقالت: «ويلي لقد ذهبوا.. وأنا التي أرسلتهم»، وانطلقت تبكي بكاء جنونيًّا. ولما بلغت دارها كاد قلبها يتحطم، حينما وقع بصرها على كلمتين مكتوبتين بالطباشير «وداعًا يا أماه» غير أنها لما عادت إلى حجرتها الأمامية، وأرسلت نظراتها إلى منزل إميلي، أضاءت وجهها النحيل إشراقة الانتصار، فستتخلص عما قريب من ذل الفقر والضنك.

والواقع أن تفضل إميلي واستعلاءها لم يكونا سوى وهم طاف بخيال (جوانا)، فقد كانت لا تملك أن تخفي رخاء حالها، ورقي معيشتها، بالنسبة لحال صاحبتها ومعيشتها. ولكنها إذا لقيت صاحبتها -وهي لا تلقاها الآن إلا قليلًا- حاولت جهدها أن تهون من شأن الفوارق الاجتماعية بينهما.

من الصيف الأول، وصار يشق على جوانا أن تكفل لنفسها أسباب العيش، فقد تضاءل متجرها، حتى لم يبقَ منه غير الواجهة والخزانة. وكانت إميلي أهم زبائنها في الحقيقة. وكان استعدادها المشفق لشراء أي شيء، دون اكتراث بنوعه أو ثمنه، يؤذي كبرياء جوانا؛ لأن هذا أسلوب المتفضل السمح، بل أسلوب المحسن البار.

ثم مضى الشتاء الطويل الكئيب. وكانت جوانا قد أدارت المكتب إلى الحائط، لتبقي على كلمات الوداع المخطوطة عليه بالطباشير، والتي لم تطق محوها.. وطالما نظرت إليها بعينين دامعتين. وعاد ابنا إميلي الوسيمان في عطلة عيد الميلاد، وترامى إلى مسامع جوانا أنهما سيلتحقان بالجامعة.. أما هي فلا تزال حبيسة الأنفاس كأنها الغريقة ولكن، ما هو إلا صيف واحد وتنتهي المحنة.

ولما قارب الموعد نهايته، زارت إميلي صديقتها، فقد سمعت أن جوانا أخذ يساورها القلق؛ لأن أشهرًا كثيرة قد مضت دون أن يصلها خطاب من زوجها أو ولديها.

وكانت إميلي تختال في ثياب حريرية هفافة رفافة، حين دخلت منزل جوانا وتسللت في صعوبة من فتحة الخزانة إلى حجرة الجلوس وراء المتجر.

فقالت لها جوانا: «أنتِ ناجحة كل النجاح.. وأنا فاشلة على طول الخط».

فأجابت إميلي: «لماذا تظنين ذلك؟ لقد سمعت أنهم سيعودون بثروة».

- «آه! وهل سيعودون؟ إن الشك لعبء تنوء به المرأة.. الثلاثة كلهم في سفينة واحدة.. تصوري.. ولم أسمع عنهم أي نبأ منذ أشهر».

- «لا تتعجلي الشر يا جوانا.. فلا يزال في الوقت متسع».

- «لقد عانيت في غيابهم الأمرَّين».

- «فلماذا إذَنْ سمحتِ لهم بالذهاب؟ لقد كنتم في حال لا بأس بها».

فانبرت لها جوانا، وقالت لها في حدة: «أنا التي حملتهم على الذهاب وسأخبركِ بالسبب.. لقد شق عليَّ أن نقضي حياتنا في فقر وضنك، بينما ترفلين -أنت- في حلل النعيم.. هأنذا قد صارحتكِ، ولكِ أن تكرهيني إذا شئت».

- «لن أكرهكِ ما حييتُ يا جوانا».

وأثبتت الأيام صدق إميلي. فقد ولى الخريف. ومضى موعد رجوع السفينة إلى الميناء. ولكن لم تَبْدُ السفينة (جوانا) على مقربة من الشواطئ الرملية، لقد آن أوان القلق. وحق لجوانا جوليف أن تراع وتتطير، فجلست إلى المدفأة شاردة اللب، يقشعر بدنها لكل خطرة من خطرات الريح. لقد كانت تخاف البحر وتمقته وترى فيه الغادر الماكر القلب، الذي يشمت بأتراح النساء وأحزانهن. ولكنها ظلت تهون على نفسها وتقول: «لا بد -مع ذلك- أنهم سيعودون».

وذكرت قول شادراك قبل الرحلة: إنهم إذا عادوا سالمين وقد ربحت تجارتهم، ذهب إلى الكنيسة كما ذهب من قبل، وسجد هو وولداه شكرًا لله على النجاة..

فصارت تختلف على الكنيسة في الصباح وفي العصر، وتجلس في المقعد الأمامي قرب درج المذبح، وعيناها معلقتان بالدرج الذي ركع عليه شادراك في ميعة شبابه، فإنها تعلم بالدقة النقطة التي ارتكزت عليها ركبتاه منذ عشرين شتاء. وتذكر منظره وهو راكع، وقبعته على الدرج إلى

جانبه.. إن زوجها تحرسه عناية الله.. ولا بد أن يعود إليها، ويركع هناك ثانية، وابناه إلى جانبيه كما حدثها، جورج إلى هذا الجانب، وجيم إلى ذاك. وأدمنت النظر إلى ذلك الموضع أثناء صلاتها حتى خيل إليها أنها ترى الثلاثة راكعين.. الهيكلان النحيلان على الجانبين والهيكل الأضخم بينهما، وأيديهم متشابكة ورؤوسهم تلقي ظلها على الحائط الشرقي. ونما الخيال حتى صار خبالًا. فلم تستطع أن تدير عينيها المكدودتين إلى الدرج، دون أن تراهم عليه راكعين.

غير أنهم لم يرجعوا. إن القدر رحيم، بيد أنه لم يشأ بعد، أن تقيل روحها من عثرتها، تكفيرًا عما ارتكبت من خطيئة، حين سخرت زوجها وولديها لإرضاء طموحها، ولكن سرعان ما تجاوز الأمر أن يكون تكفيرًا، وأشرفت جوانا على هوة سحيقة من اليأس، فقد مضت أشهر على موعد وصول السفينة دون أن تصل.

وكان يترامى إلى مسامعها أو يتراءى لعينيها ما يبشر بوصولهم. فهي كلما صعدت إلى قمة التل وراء الميناء، وأرسلت بصرها إلى القناة والبحر من ورائها، أحست إحساس الواثق أن نقطة صغيرة تبدو على الأفق، وتشق عباب الماء المنبسط أبدًا. وهذه النقطة هي لا مراء طرف شراع لجوانا. وإذا سمعت وهي في بيتها صيحة أو حركة صادرة من الطريق المؤدية إلى الميناء، هبت واقفة وهي تصيح: «هؤلاء هم».

غير أنهم لم يكونوا مَن توهمت. وجعلت في عصر كل يوم من أيام الأحد تشهد الأشباح الخيالية راكعة على الدرج، ولكنها لا تشهد الأشخاص. وخلا المتجر من بضاعته، وكأنه أكل ما في جوفه؛ لأنها في شرودها وحزنها وعزلتها لم تشترِ أي قدر من البضائع، فانصرف عنها الزبائن جميعًا.

وحاولت إميلي لستر أن تمد يد العون للمرأة المنكوبة. ولكن معونتها كانت تُقابل بالرفض دائمًا. فكلما عرضت إميلي معونتها، ردتها جوانا في صوت مختنق أجش، قائلة: «أنا لا أحبك.. ولا أطيق أن أراكِ»، فتجيبها إميلي: «ولكني أريد أن أساعدكِ، وأسري عنكِ يا جوانا».

- «أنتِ سيدة محترمة، ذات زوج ثري، وولدين نجيبين، فماذا تريدين من ثكلى مثلي، متهدمة متحطمة؟».

- «أريد يا جوانا أن تقيمي في منزلي، وأن تغادري ذلك المكان الموحش الكئيب».

- «افرضي أنهم جاءوا ولم يجدوني في منزلي.. أتريدين أن تفرقي بيني وبينهم؟ كلا.. سأظل هنا.. وأنا لا أحبكِ، ولا أستطيع أن أشكركِ مهما أبديتِ من عطف وشفقة».

على أن جوانا لم تستطع بمضي الزمن، أن تدفع إيجار الدكان والمنزل بغير أن يكون لها دخل. وأكد الناس لها ألا جدوى من التعلق بأهداب الأمل في عودة شادراك وولديه. فقبلت على مضض أن تنزح إلى منزل إميلي لستر، وكأنما تنزح إلى ملجأ.. وخُصص لها في هذا المنزل حجرة في الطبقة الثانية، تدخل إليها، وتخرج منها كما تشاء دون أن تختلط بالأسرة؛ واغبر شعرها، ثم اشتعل

رأسها شيبًا، وتغضن جبينها وأخذ هيكلها ينحني ويضمحل. ولكنها ظلت مقيمة على أملها في عودة المفقودين. وكانت إذا قابلت (إميلي) على الدرج قالت لها في حدة: «أعلم لماذا جئت بي إلى هنا. إنهم سيرجعون، وستخيب آمالهم إذا لم يجدوني بالمنزل، وربما عادوا من حيث أتوا. وبذا تثأرين لنفسكِ، وتنتقمين مني لاغتصاب شادراك».

وكانت إميلي تحتمل هذا التبكيت من الروح الجريحة المحزونة، وكانت واثقة، كما يثق أهل هافنبول جميعًا، أن شادراك وولديه قد غاصوا في قاع اليم. ومضت سنوات، وسُلِّم بفقد السفينة.. ومع ذلك فقد ظلت جوانا كلما أيقظها صوت في الليل، تنهض من فراشها وتلقي نظرة على المتجر المقابل، مستعينة في ذلك بضوء المصباح الخافت المرتعش، لترى مَن صاحب الصوت فلعله صوتهم.

وفي ليلة رطبة مظلمة من ليالي ديسمبر، بعد ست سنوات من سفر الجوانا، كانت الريح تهدر من البحر، حاملة ضبابًا مريبًا يغشي الوجه كما يغشاه قماش ناعم مبتل، وكانت جوانا قد صلت صلاتها المعتادة من أجل الغائبين في حرارة وثقة لم تستشعرها منذ أشهر، ونامت حوالي الساعة الحادية عشرة. ولكنها لم تلبث أن استيقظت فجأة فيما بين الساعة الواحدة والثانية صباحًا؛ فقد سمعت من غير شك وقع أقدام في الطريق، كما سمعت صوت شادراك وولديه عند باب المتجر، فقفزت من فراشها، واختطفت شيئًا لا تكاد تعرفه، لتغطي جسمها، وهبطت درج إميلي الفسيح المفروش بالأبسطة، ووضعت الشمعة على النضد بالصالة ورفعت المزلاج والسلسلة، وخرجت إلى الشارع.. وعاقها الضباب الذي يهب من الميناء أن ترى المتجر، مع أنه جد قريب.. غير أنها رأته وذهبت إليه في الحال.. كيف ذلك؟.. لا أحد هنا!!

فجعلت المرأة التعسة تذرع الشارع ذهابًا وجيئة، عارية القدمين، دون أن ترى أحدًا. ثم جعلت تقرع بكل قوتها ذلك الباب، الذي كان يومًا بابها.. لعلهم دخلوا ليقضوا فيه سحابة الليل حتى الصباح؛ كيلا يزعجوها.

ومضت بضع دقائق قبل أن يطل عليها من النافذة العليا، ذلك الشاب الذي اشترى المتجر. ويرى هيكلًا آدميًّا واقفًا تحت النافذة، والملابس لا تكاد تستره.

فسأله الهيكل: «هل أتى أحد؟».

- «أوه.. مسز جوليف. لم أدرِ أنه أنت»، كذلك قال الشاب في عطف وإشفاق، فقد كان يعلم ما فعل بها تشبثها اليائس.. بأمل تقطعت أسبابه...

«كلا يا مسز جوليف لم يأتِ أحد».

Contents

مكتبة Telegram Network 2020
مقدمة
منزلته الأدبية:
امرأة حالمة
* * *
* * *
الابن يعترض
-1-
* * *
-2-
* * *
-3-
* * *
إراحة لضميره
-1-
* * *
-2-
-3-
* * *
مأساة إملين
-1-
* * *
-3-
* * *
-4-
* * *

-5-
في الجولة الغربية
-1-
* * *
-2-
* * *
-3-
* * *
-4-
-5-
إرضاء لزوجته
-1-
* * *
-2-
* * *
-3-
«تمت»

«تمت»

Notes

[←1]

تغمز في مشيتها.

[←2]

عيد من الأعياد المسيحية.

[←3]

بطلة نبيلة من أبطال الأساطير اليونانية، قتل الملك أخاها، وأمر ألا يدفن، فخالفت أمره ودفنته، فأسرها الملك في قبر، ولم يُصْغِ إلى توسلات ابنه، وكان خطيبها.. وفي القبر أظلمت حياتها فانتحرت. (المترجم).

[←4]

لنكولن إن: إحدى الهيئات الأربع، صاحبة الحق المطلق في قيد أسماء المحامين أمام محاكم إنجلترا. (المترجم).